البراهين المتظاهرة

حمود بن عبد الله بن عقلاء الشعيبي

الإيمان بالله

الإقرار بوجود الخالق سبحانه وتعالى والشعور بعظمته وقهره أمر فطري يجده ويشعر به كل إنسان في قرارة نفسه من غير أن يحتاج إلى برهان نظري، أو تجربة علمية، ويشترك في هذا الشعور وهذا الاعتقاد الفطري كل إنسان مهما كانت منـزلته من الفهم والإدراك، أو الجهل والغباء، أي أن الإنسان العاقل سواء كان عالمًا أم جاهلاً فإنه يدرك بالضرورة أن له ربًّا خالقًا قاهرًا مسيطرًا عليه مدبرًا لشئونه.

إن الإنسان ليشعر بوجود قوة كبرى مهيمنة على الكون تمنحه التدبير والتنظيم وتتصرف فيه بالحياة والموت والبناء والفناء والتغير والتطور والحركة والسكون وجميع أنواع التغييرات الحكيمة التي تجري فيه.

إنه ليشعر بهذه الحقيقة ويؤمن بها إيمانًا عميقًا، سواء استطاع أن يقيم الدليل البرهاني علي صدق هذا الشعور أو لم يستطع، فدليل الفطرة ودليل البداهة شاهد حقّ يسبق الشواهد النظرية وقد يكون أدق منها وأصدق، وحسب الإنسان في إيمانه واعتقاده بشيء ما أن يوافق شعوره الفطري وإحساسه البديهي النتائج النظرية التي يتوصل إليها الباحثون من علماء وفلاسفة، أو أن يتفق شعوره وإحساسه مع الشعور والإحساس الصادق للكثرة الكاثرة من المجموعة الإنسانية.

بل ربما يقال: إن سلامة الفطرة وصفاء الإحساس الخفي من أهم الوسائل الأساسية في شعور الإنسان بكثير من البديهيات واكتسابه كثيرًا من المعارف الحقة التي يعرفها الإنسان في أطوار حياته.

إن كثيرًا من علومنا ومعارفنا ليس لها دليل في أنفسنا غير شعورنا الفطري بها، ومهما تقدمت العلوم والمكتشفات فإنها لا تزيدنا عنها شيئًا غير ما توصلنا إليه بفطرتنا(1) .

إن هذه الفطرة وهذا الشعور الذي يشترك فيه جميع الناس في جميع المجتمعات والعصور على اختلاف أجناسهم وتفاوت ثقافاتهم وأفكارهم لبرهان كاف في القطع بوجود البارئ عز وجل من غير حاجة إلى برهان علمي تجريبي أو دليل نظري ولا يشك في صحته إلا من فسدت فطرته بمرض الكبرياء والعناد، أو الشهوات النفسانية، أو الشكوك المادية التي كونت حجابًا كثيفًا على بصائر هؤلاء المنحرفين عن الفطرة السليمة.



1-العقيدة الإسلامية وأسسها (ج1 / ص91) الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني.

إثبات وجود الخالق

عن طريق التأمل في مخلوقاته

إننا إذا انتقلنا من الدليل الفطري على وجود الخالق العظيم إلى الأدلة النظرية وتأملنا هذا الكون الواسع الفسيح، وما أودع فيه من بديع الصنع وعجيب الإتقان الذي لا يصدر إلا عن فاعل مختار.
إننا إذا تأملنا العالم العلوي بما فيه من سموات وأفلاك وكواكب وشمس وقمر... ونظرنا في العالم السفلي بما فيه من جبال وأنهار وبحار وحيوان ونبات.
حصل لنا القطع بوجود الخالق، بل نفس الإنسان فيها من الشواهد والأدلة ما يفيد القطع بوجود الصانع، فإن جسم الإنسان يشتمل على كثير من الأجهزة التي بلغت في الدقة والتعقيد درجة حيرت عقول الأطباء والفلاسفة وغيرهم كجهاز التنفس وجهاز الدورة الدموية وجهاز الهضم وغيرها من الأجهزة الدقيقة التي حير العلماء قرونًا عديدة كشف أسرارها.. بل إن غير الإنسان من الحيوانات الكثيرة التي نعلمها والتي لا نعلمها يشارك الإنسان في دقة الصنع وغرابة التكوين، فانظر إذن كم عدد أفراد الإنسان في جميع البلدان وفي جميع الأعصار.
وكم عدد الحيوانات كذلك وإلى هذه النشأة البديعة العجيبة، نشأة الإنسان والحيوان والنبات من المادة الميتة التي لا حياة فيها ولا شعور.
يشير الكتاب الكريم بقوله تعالى: ﴿ يخْرِجُ الْحَي مِنَ الْمَيتِ ﴾ [الأنعام:59].

إن أي عاقل نظر في هذا العالم علويه وسفليه، حيوانه وجماده وما أودع فيه من عجائب المخلوقات وغرائب الصنع وما يسير عليه من نظام متقن بديع لا تفاوت فيه ولا اضطراب يدرك ضرورة أن مثل هذا لا يصدر إلاّ عن مدبر حكيم(2) .
وهذا المنهج منهج النظر في آلاء الله ومخلوقاته هو الذي نهجه القرآن العزيز في لفت نظر الخلق إلى الاعتراف بالله والإقرار بوجوده وتدبيره وربوبيته :
﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يتَبَينَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53].
﴿ وَفِي الأَرْضِ آياتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: 21،20].
﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا ينفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِّقَوْمٍ يعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 164].
آيات عظيمة وبراهين قاطعة،سماء واسعة عالية بلا عمد، وشمس تشرق فيأتي النهار، وتغرب فيأتي الليل، قمر وكواكب، ليل ونهار متعاقبان، يأتي

الليل فيغطي العالم بظلامه ينقطع فيه الخلق إلى نومهم وراحتهم، ويعقبه النهار فيخرجون فيه إلى معاشهم وحروثهم وتجاراتهم وصناعاتهم وغيرها... بحار تضطرب أمواجها وتعلو متونها السفن، وتنقل المسافرين من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم.

سحب تتكاثف وأمطار تنزل... كل هذه آيات وشواهد ناطقة بوجود الخالق المدبر العظيم.

هل يتصور عاقل أن تتم مثل هذه الأمور صدفة من غير فاعل مريد وقد ضرب ابن القيم رحمه الله في كتابه «مفتاح دار السعادة» الجزء الأول ص214 مثالاً أوضح فيه استحالة صدور الكون عن غير مدبر حكيم فقال: «فاسأل المعطل الجاحد ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه حيث لا يرى الناظر فيه خللاً في مادته ولا في صورته، وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها وفي تلك الحديقة من يلُم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منه شيء ولا يتلف ثمارها، ثم يقسم غلتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسم هكذا على الدوام.

أترى هذا اتفاقًا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر؟

بل اتفق وجود ذلك الدولاب وتلك الحديقة وكل ذلك اتفاقًا من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر.

أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان؟ وما الذي يفتيك به؟ وما الذي يرشدك إليه؟».

يشير رحمه الله في هذا المثال إلى أن هذه الجزئية الصغيرة من جزئيات الكون الكثيرة لا يصح في عقل إنسان أن يكون هذا المثال صدر عن غير فاعل مدبر، فمن باب أولى ألا يصدر هذا الكون الكبير عن غير فاعل وصانع حكيم عليم يفعل بمشيئته وإرادته.



إثبات وجود الخالق بالأدلة العقلية

والبراهين العلمية التجريبية

إن كثيرين من مرضى العقول ممن فسدت فطرهم وانحرفت أفكارهم واستولت عليهم الشبه والشكوك ينكرون وجود الصانع ولا يعترفون بشيء سوى هذا العالم المادي المشاهد، ويدعون أن كل شيء في هذا الكون صدر عن: إما الطبيعة أو الصدفة أو المادة؛ أصنام ثلاثة يعللون بها باطلهم ويموهون بها على السذج من الناس من أمثالهم.

وسوف ترى أن هذه الشبه الثلاث التي طالما تغنى بها الملاحدة أوهامٍ ما هي إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

* * *

عجز الطبيعة عن الإبداع والخلق

مما لا شك فيه حتى عند أصحاب الطبيعة أن الطبيعة ميتة لا حياة فيها ولا شعور لها ولا إدراك ولا عقل ولا إرادة...

ومن هذا شأنه فلا يقدر على خلق ذرة أو إيجاد حبة فضلاً عن خلق هذا الكون العظيم بما فيه من تنظيم وإحكام وتدبير وإتقان وحياة ونمو، فكيف يتصور عاقل يعي ما يقول أن الطبيعة الفاقدة للحياة والشعور والإدراك تمنح غيرها الحياة والشعور والإدراك... وكيف يفسر عاقل ما يحدث في هذا الكون من اختلاف وتغير بين أنواع جزئياته عن محدث لا يملك الإرادة؟

هذا أمر يستحيل تصوره في بديهة كل إنسان.

إن القول بأن الطبيعة تخلق شبه مصطنعة من شبهات العصر وضلالة مبتدعة من ضلالاته وهي مع هذا لا تعدو كونها وهمًا لا حقيقة له ولا وجود ولا يستند إلى أصل صحيح ولكنها مع اصطناعها هذا و كونها وهمًا نجدها مسيطرة على عقول كثير ممن يدعون الثقافة والمعرفة، وقد انطلت عليهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص.

إنك حينما تبادر أحد الطبيعيين بالقول: من خلق السموات والأرض؟ يقول لك: الطبيعة. ومن خلق النبات والحيوان؟ يقول لك: الطبيعة.. من خلق الإنسان؟ يقول لك الطبيعة.

فمن يدبر جميع هذه الأمور الفلكية والحيوية والغريزية وكل حساب دقيق ونظام لا يحيد؟ فسيقول لك: الطبيعة.

إذن: فما هي الطبيعة؟ وما هي مفاهيمها؟ وما هي حقيقة تأثيرها؟

الطبيعة في اللغة: السجية والخلق. غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس حسب تفاوتهم (مفهومان):

المفهوم الأول:

أنها عبارة عن الأشياء بذاتها، فالجماد والنبات والحيوان، كل هذه الكائنات هي الطبيعة. وهو مفهوم غير دقيق. وحكم غير سديد كما سنبين لك في فصل لاحق.

المفهوم الثاني:

إنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها، فهذه الصفات من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وملاسة وخشونة... وهذه القابليات من حركة وسكون ونمو واغتذاء وتزاوج وتوالد، كل هذه الصفات والقابليات هي الطبيعة.
أما القول الأول فلا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء.
فالأرض خلقت الأرض والسماء خلقت السماء والأصناف صنفت نفسها والأشياء أوجدت ذاتها.
فهي الحادث والمحدث، وهي المخلوق والخالق في الوقت ذاته وهذا القول بين البطلان.
أما القول الثاني وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين فنقول فيه:
الحقيقة أن الذين يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص لا يعدون كونهم وصّافين لتلك الظواهر لا يعرفون كنهها ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها، ولو فعلوا ذلك لوجدوا أن القابلية التي اعتمدوا عليها في خلق الشيء سراب خادع يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ولإيضاح ذلك بالطريق العلمي نضرب المثال التالي:
نضع حبة في التراب ونسقيها بالماء فتنتفخ وتنفلق فيظهر منها الرشيم ويندفع فيه الجذر إلى أسفل والساق إلى أعلى وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلاً فالقابلية التي كانت في الحبة هي:
الانتفاخ والانفلاق وظهور الرشيم ولولا هذه القابليات المتوالية لما اضطرت تلك الظواهر الحيوية ولما نشأت عنها الثمرة، فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها.
لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شيء فمن الذي نفخها وفلقها؟ لو كان للحبة عقل وتفكير وتدبير لقلنا إن عقلها هو الذي هيأ لها ذلك، ولو أن الماء هو الذي نفخها وفلقها لأمكن للماء أن ينفخ الحديد ويفلقه، إذن فلابد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر، وإذا كانت الحبة بذاتها جدلاً انتفخت وانفلقت فلماذا لم تجمد وتضمر بدل أن تنتفخ وتنمو؟ ولكي يحصل التكاثر والبقاء يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة.
والبذرة لا تملك شيئًا من ذلك فكيف حصلت إذن ثمرة بعينها؟ بل كيف حصلت ثمار كثيرة ومتنوعة؟ وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة في صميم كل بذرة منها؟
والحقيقة أن من أمعن النظر في تعبير الطبيعيين المستندين إلى القابلية حينما يقولون: طبع النبات على ذلك، انتفخت الحبة وانفلقت وتوالدت الخلايا، تميل الخلية الحية إلى الانقسام، إنها أفعال مبنية للمجهول لجهلهم أو تجاهلهم الفاعل الحقيقي فكأن الطبيعي أغمض العين عن السبب الحقيقي وبنى الفعل للمجهول تخلصًا، فمن الذي نفخ الحبة؟ ومن الذي فلقها؟ ومن الذي أدى إلى التوالد؟ ومن الذي جبل الخلية على

الانقسام؟ ومن الذي جعلها تنتفخ بدلاً من أن تضمر؟ كل هذا التحقيق لا تصل إليه نظرة الطبيعيين القصيرة بل المقتصرة على وصف الظواهر دون الذهاب إلى أسبابها، بل المخطئة في جعل الصفة المنفصلة سببًا فاعلاً، والقابلية مؤثرًا، والظاهرة المجهولة عاملاً مكونًا، فالانتفاخ صفة نشأت عن المؤثر الخارجي عن الشيء وعن قبول أثره في ذلك الشيء والانفلاق صفة.. إلخ.

وما زاد الطبيعي على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهومًا مركبًا سماه: «قابلية التوالد والنمو» فجعل من القابليات التي هي عرض من أعراض الشيء سببًا في الخلق ومن الصفة الانفعالية التي لا تعي ولا تدرك سببًا فاعلاً واعيا في تكوين الأشياء... إذن فمن الذي ركز الطبيعة في العناصر؟ ومن الذي نوع تلك الطبائع؟(3) .

الصدفة لا تخلق

وبعد أن هوى الصنم الأول (الطبيعة) وتحطم على صخرة الحقيقة وبعد أن احترق الحجاب الكثيف الذي نسجه الملاحدة الدهريون من الدعاية والأباطيل حول الطبيعة بشهب اليقين فإننا نعرض لصنم آخر هو الصدفة أي دعوى الملاحدة بأن هذا العالم حدث صدفة لم يكن له فاعل مريد وحيث إن هذه الدعوى وهمٌ وخيال رسخت في أذهان الملحدين، فسوف نشرحها لك بإيجاز؛ لنبين بطلانها بطريقة لا تدع للشك مجالاً في أنها كذب وافتراء.

إنهم يقولون: صحيح أن الكون المادي لم يكن موجودًا في صورة نجوم وكواكب وسيارات كالتي نشاهدها فتلك حادثة قطعًا لكن شيئًا ما يمكن اعتباره أساسًا للمادة كان موجودًا قبلها فحدث شيء ما فجأة لسبب مجهول فأدت الصدفة البحتة إلى نوع من الاضطراب في الأساس الذي نشأت عنه مادة الكون الحالية فنشأت عن ذلك الاضطراب ظروف مواتية أدت إلى تحليق الكواكب والسيارات في مجموعات كبيرة ما لبث أن انفصل بعضها عن بعض بقوة دفع الاضطراب المتتابع الأثر ثم تكونت الأرض وأخذت العناصر تتجمع على سطحها وتختلط حتى حدث بطريق المصادفة البحتة أن اجتمعت عناصر معينة وتفاعلت بمحض الصدفة فصادف تجمعها ظروفًا ملائمة لنشأة الحياة على الأرض فانبعثت من هذه الظروف نواة الحياة الأولى التي نمت وتفرعت وتطورت تلقائيا حتى وصلت إلى النبات والحيوان والإنسان فتأثرت في ذلك كله بعوامل البيئة المادية وتطور الأجناس الطبيعي.

هذا هو ملخص دعوى الماديين في أصل الكون ونشأة الحياة، فما نصيب هذه الدعوى من التفكير العلمي المحض بحق؟

إن دعوى صدور هذا الكون عن طريق الصدفة المحضة دعوى باطلة لا تقوم على أصل صحيح ولا تستند إلى أصل ثابت بل لقد أثبت العلماء الرياضيون عن طريق القوانين الرياضية أن صدور الكون عن طريق المصادفة المحضة أمر

مستحيل التصور فقد وضعوا قانونًا يضبط نسبة الإمكان والاحتمال في كل قول بالمصادفة وهو يقوم على جمع إحصائي لكل ما يتضمنه القول.
ثم تطبيق قواعد رياضية علمية ينتج عنها تحديد كامل لشروط الإمكان الصحيح في القول المفترض وعلى سبيل المثال فإن العلماء الرياضيين قاسوا قدر الإمكان والاحتمال في القول المادي السابق بنشأة نواة الحياة الأولى بمحض تجمع عناصر معينة بطريق المصادفة البحتة دون تدبير قاصد فانتهوا من ذلك إلى الاستحالة أن يكون الأمر قد حدث على هذا النحو لأنهم جمعوا عناصر المادة وكميتها وتنوعها فوجدوا أن قدر المادة الموجودة في الكون لا يكفي رياضيا لنشأة نواة الحياة، ومن ثم توصلوا إلى أنه لابد من وجود إرادة قاصدة عالمة وراء بدء الخلق ونشأة الحياة فيه.
إن دعوى الملحدين بأن حدوث العالم حصل صدفة بلا فاعل مريد دعوى كاذبة ينقضها الإحكام والإتقان المشاهد في جميع أفراد الكون وجزئياته التي إذا تأملها العاقل بإنصاف وتجرد، أدرك يقينًا أن مثل هذا لا يحدث إلا عن إرادة صادرة عن مريد حكيم عالم يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها.
ولقد أكثر العلماء من ذكر الأمثلة التي يثبت بها بطلان شبهة المصادفة فمن ذلك نسبة الذكور إلى الإناث في كل مجتمع ففي كل مجتمع يوجد الأعزب من الرجال والعزبة من النساء كما يوجد المتزوجون الذين تختلف حالاتهم من حيث الإنجاب بين العقم أو إنجاب الذكور وحدهم أو إنجاب الإناث وحدهن أو إنجاب الذكور والإناث فعندنا إذن خمس حالات فردية في كل مجتمع صغير أو كبير لكن حصيلة الأمر دائمًا في كل مجتمع هو التناسب بين مجموع عدد الذكور من كل الأعمار ومجموع عدد الإناث من كل الأعمار (49 ـ 51 أو 49.5 ـ 50.5 أو 48.5 ـ 51.5 أو 48ـ 52) ولم يختل هذا التناسب في أي مجتمع بشري اختلالاً كبيرًا إلا بسبب ظروف طارئة مثل الحرب الكبيرة التي تأكل الرجال فتزيد نسبة النساء ونحو ذلك ومع هذا فقد لوحظ بمزيد من الدهشة أن آثار هذه الظروف الطارئة لا تستمر طويلاً حيث لوحظ أنه في أعقاب الحرب الكبيرة تزيد نسبة المواليد من الذكور حتى يرجع التناسب تدريجيا.
ما الذي يدل عليه هذا التناسب العجيب الذي يسود الأجناس البشرية كلها في كل زمان ومكان؟ إنه يقطع بأن هناك نظامًا كونيا يتمثل في سنة عامة قاصدة هيمنت على البشرية.. فهل يمكن أن يكون هذا النظام المحكم ذو الغايات المقصودة قد صدر عن محض الصدفة البحتة التي لا قصد فيها ولا إرادة.
أعتقد أن التفكير السليم يقضي باستحالة ذلك.
ومثال آخر يذكره العلماء عند نقض شبهة دعوى المصادفة: وهو أن نسأل هؤلاء هذا السؤال:
هل لو وضعنا في علبة من الخشب مثلاً مجموعة كبيرة من الحروف المعدنية التي تستعمل في الطباعة تكفي لتكوين فقرة تامة من الكلام المحكم الرصين، تصور حادثة وقعت تصويرًا صحيحًا وضعًا مشوشًا غير مرتب ثم هززنا العلبة هزًّا قويا يحرك جميع ما فيها من حروف وهي محكمة الغلق

ثم فتحنا العلبة أيمكن أن تتضام الحروف المناسبة بعضها إلى بعض حتى تكّون كلمات ثم الكلمات المناسبة بعضها إلى بعض حتى تكون جملاً صحيحة ثم الجمل بعضها إلى بعض حتى تكون الفقرة المطلوبة، هل يجوز ذلك؟ فإذا جوزوا حدوثه مرة هل يجوز حدوثه ثانية، وإذا جوزوا حدوثه ثانية هل يجوز حدوثه ثالثة ورابعة وخامسة ومئات وآلاف وملايين المرات بحيث تصبح المصادفة البحتة تكفي لأن تصنع ذلك ملايين المرات، ولو بلغ بهم العناد والمكابرة حدًّا يقولون معه بجواز ذلك(4).

أو أن في هذين المثالين دلالة قاطعة على بطلان دعوى المصادفة التي طالما لجأ إليها الملحدون وتستروا وراءها إذا سئلوا عن خالق هذا الكون ومبدعه... ولنذكر نماذج من أقوال العلماء ـ علماء الطبيعة والكيمياء والأحياء وغيرها ـ الذين وصل بهم العلم التجريبي إلى الإقرار بوجود الله عز وجل.

فمن ذلك قول الدكتور «جون وليام كلونس»: «إن هذا العالم الذي نعيش فيه قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة، إنه مليء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج إلى مدبر والتي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى.

ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدة وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده».

وقال الدكتور (توماس دافين باركس): «إنني أقرأ النظام والتصميم في كل ما يحيط بي من العالم غير العضوي ولا أستطيع أن أسلم بأن يكون كل ذلك قد تم بمحض المصادفة العمياء التي جعلت ذرات هذا الكون تتألف بهذه الصورة العجيبة، إن هذا التصميم يحتاج إلى مبدع ونحن نطلق على هذا المبدع اسم (الله)».

وقال العالم البيولوجي (لوكترسيل هامان): «إن نظرة واحدة إلى إحدى الخرائط التي تبين التفاعلات الدائرية العديدة وما يدور حول كل منها والآخر من متفاعلات أخرى كفيلة بأن تقنع الإنسان بأن مثل هذه العلاقات لا يمكن أن تتم بمحض المصادفة. ولعل هذا الميدان يهيئ للإنسان من العالم ما لا يهيئه أي ميدان آخر بأن الله يسير هذا الكون تبعًا لسنن رسمها ودبرها عندما خلق الحياة».

إن أقوال هؤلاء العلماء وعشرات غيرهم من العلماء الذين توصلوا بطريق العلوم التجريبية والكشوفات العلمية إلى الإقرار بوجود الخالق تدل دلالة قاطعة على استحالة الصدفة في إيجاد الكون(5).



حدوث الكائنات برهان قاطع

على وجود الخالق

إننا إذا تأملنا هذا الكون العظيم المحيط بنا ونظرنا في جزئياته التي لا تنفك تحدث شيئًا فشيئًا أدركنا أن لوجوده مبدأ.
إذن فلابد له من محدث لأنه يستحيل عقلاً أن يكون أحدث نفسه أو أن يكون حدث من غير محدث. كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيرِ شَيءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: 35].
ومن البراهين العقلية على حدوث العالم أنه ليس أزليا، فهذه التغيرات التي تحدث في هذه الموجودات الكونية سواء منها الموجودات المادية المدركة بالحس أو الموجودات الأخرى الخارجة عن نطاق الإدراك الحسي والتي نستنتج وجودها ببرهان العقل فنلاحظ أن حوادث التغير لا تنفك عنها أبدًا، فما من شيء في هذا الكون الفسيح إلا ونلاحظ أنه في أوضاع من التغيرات الكثيرة بشكل مستمر.
فهذه التحاويل الكونية في المواد الكيميائية حوادث مستمرة وهذه الأعراض في الظواهر الفيزيائية في تغير مستمر... نرى في ذلك تحول البذور إلى أشجار وثمار ثم تحولها إلى رماد أو هشيم يتفتت ثم يتحول إلى عناصره الكيميائية والفيزيائية البسيطة أو المركبة.
ونرى ذلك في تحول الأغذية إلى دماء في الأحياء ثم إلى نطف ثم إلى أحياء أخرى لها وحدات مستقلة في صفاتها وأعراضها وخصائصها وأعمارها وطباعها إلى غير ذلك من التغيرات الكثيرة التي لا تتناهى استقصاء وحصرًا.
ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الطريقة أعني طريقة الاستدلال بالتغير على الحدوث في آيات تنير الأفكار وتنبهها بطريق غير مباشر إلا أن فكرة (التغير) تتنافى مع فكرة الأزلية لأن التغير يتضمن حدوثًا متتابعًا ينبه إلى أن له بداية كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيهِ اللَّيلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 75 ـ 79].
ولقد أيدت العلوم التجريبية الحديثة النظريات العقلية القائلة بحدوث هذا العالم فكشف عن قوانين هامة لا تدع للشك مجالاً في أن هذا العالم وجد بعد أن لم يكن وأن له محدثًا أحدثه هو الله سبحانه وتعالى ومن بين تلك القوانين القانون الثاني للحرارة الديناميكية ويسمى هذا القانون الطاقة المتاحة أو (ضابط التغير) وهذا القانون يثبت أن الطاقة في الكون تقل

تدريجيا بصورة مطردة حيث تنتقل الحرارة فيه دائمًا من وجود حراري إلى وجود حراري أقل مع استحالة أن يحدث العكس فتزيد الطاقة المتاحة في الكون لأنها تنتقل من وجود إلى وجود أقل بصورة تدريجية مطردة(6).

لكن كيف يثبت هذا الكشف حدوث الكون المادي؟

القضية ببساطة هي أن هذا القانون يثبت أن الكون المادي لابد أن ينتهي إلى نوع من الخمود والفناء، يتوقف فيه نشاطه المعتاد وتختل الوظائف الطبيعية فيه وذلك حين تنفد الطاقة التي يفقدها تدريجيا بحكم استمرار العمليات الكيميائية والطبيعية فيه.

وهذا يثبت قطعًا وضرورة أن لهذا الكون بداية إذ لو كان أزليا لفقد طاقته من وقت بعيد جدًّا لأن الأزل لا نهاية له فمهما قدرت عظمة الطاقة فإنها تتلاشى في الأزل اللانهائي(7).

* * *

(3) البراهين العلمية على وجود الخالق من ص42 إلى ص46 ـ محمد فؤاد البرازي.

(4) المرجع: الإشارات والتنبيهات لابن سينا (ج1 / ص67).

(5) المصدر: الله يتجلى في عصر العلم (ص26) .

(6) العقيدة الإسلامية وأسسها للميداني (ج1 / ص136).

(7) تناقض المذاهب المادية فيما يتصل بقضية الألوهية ص23 للدكتور محمد بلتاجي.

ما يجب لله من صفات الكمال

بعد أن ثبت بشكل قاطع لا يدع مجالاً للشك في أن الله موجود وأن وجوده واجب فإني سأبين ما يجب له سبحانه وتعالى من صفات الكمال وما يجب تنزيهه عنه من صفات النقص والعيب.

إن الطريقة الصحيحة التي يجب أن يسار عليها في صفات الله إثباتًا ونفيا هي أن يثبت له من صفات الكمال إثباتًا مفصلاً وينفى عنه كل نقص وعيب نفيا مجملاً.

﴿ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11] وهذه الطريقة هي التي سار على نهجها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان.

وما زالوا كذلك إلى أن حدث الاختلاف في عقيدة المسلمين بسبب أعداء الإسلام الذين انضموا إلى صفوف المسلمين يظهرون الرغبة في الإسلام ويبطنون الكيد له ولأهله فافترق المسلمون واختلفوا في العقيدة كما قال صلى الله عليه وسلم:

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة».

قيل: من هم يا رسول الله؟

قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»(8).

* * *

منهج السلف في أسماء الله وصفاته

لقد سار السلف في أسماء الله وصفاته على منهج القرآن في ذلك فوقفوا مع نصوص الكتاب والسنة في الأسماء والصفات فما أثبته الله لنفسه في كتابه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم فإنهم يثبتونه ويؤمنون به ولا فرق عندهم في ذلك بين الصفات الذاتية كالعلم والقدرة والصفات الفعلية كالغضب والرضا، يثبتون الجميع إثباتًا خاليا من التشبيه.

كما ينزهون الله سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق به من النقائص والعيوب تنزيهًا لا يصل إلى حد التعطيل وفقًا لقوله تعالى: ﴿ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:11].

يثبتون إثباتًا مفصلاً وينفون نفيا مجملاً؛ ومعنى الإثبات المفصل والنفي المجمل ألا يثبت لله من الصفات إلا ما ورد به النص، أما النفي فإننا نجمل فيه ونقول: كل نقص أو عيب فالله منزه عنه.

أما المخالفون لمنهج السلف منهم فرق عديدة أكبرها:

(أ) الجهمية.

(ب) المعتزلة.

(ج) الأشاعرة والكلابية والماتريدية.

(د) المشبهة.

الجهمية:

الجهمية أتباع الجهم بن صفوان السمرقندي والجعد بن درهم.

وهؤلاء قوم نفوا عن الله سبحانه وتعالى جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا وقالوا لا يوصف الله بصفة يوصف بها المخلوق، ولا يسمى باسم يسمى به المخلوق مطلقًا فجردوه تعالى عن أسمائه الحسنى وعطلوه عن صفات الكمال، وشبهتهم في ذلك التنـزيه فإنهم يقولون لو أثبتنا لله صفة يوصف بمثلها المخلوق للزم أن يكون الله مشابهًا للمخلوقين فهم عطلوا الصفات خوفًا من التشبيه بزعمهم.

ونقول لهم عند نقض هذه الشبهة إما أن تثبتوا لله صفة الوجود وإما أن تنفوها عنه، وعلى كلا التقديرين فأنتم محجوجون لأنكم إن نفيتم صفة الوجود كفرتم وإن أثبتم صفة الوجود قيل لكم: المخلوق يوصف بالوجود فإن قلتم وجود الله ليس كوجود المخلوق بل هو وجود يخصه ويليق بجلاله قيل لكم وكذلك الصفات الأخرى التي نفيتموها ليست كصفات المخلوقين بل هي صفات تخصه وتليق به. كالغضب والرضا والنزول والاستواء وغيرها من الصفات الفعلية والذاتية التي جحدتموها وعطلتم الباري منها.

المعتزلة:

المعتزلة أتباع واصل بن عطاء الغزال، وعمرو بن عبيد وسموا معتزلة لأن واصل بن عطاء كان من تلامذة الحسن البصري وكان يومًا في حلقته فسأل أحد الحاضرين عن حكم مرتكب الكبيرة هل يخرج من الإيمان بمجرد ارتكابه الكبيرة؟ وقبل أن يجيب الحسن عن هذا السؤال سارع واصل بن عطاء فقال: أنا أقول مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ثم اعتزل الحلقة وجلس إلى سارية من سواري المسجد يشرح هذه القاعدة ويبين للحاضرين أصولها فقال له الحسن (اعتزلت حلقتنا) فسمي واصل وأصحابه المعتزلة.

ورأي المعتزلة في الصفات كرأي الجهمية (التعطيل) ينفون عن الله كل صفة من صفات الكمال، إلا أنهم يختلفون مع الجهمية في مسألة الأسماء الحسنى فإن الجهمية ينفونها والمعتزلة يثبتونها ولكن يجعلونها أعلامًا مترادفة لا تدل على شيء أكثر من الذات فالعليم لا يدل على العلم

والرحيم لا يدل على الرحمة والمريد لا يدل على الإرادة وهكذا كل اسم أثبتوه لله فإنه لا يدل إلا على ذات الله فقط.

وشبهة المعتزلة في نفي الصفات التنزيه أيضًا كشبهة الجهمية إلا أنهم يختلفون معهم في طريقة الاستدلال، فالجهمية يستدلون على نفي الصفات بقولهم: إنه يلزم من إثبات الصفات لله أن يكون جسمًا لأن الصفات أعراض والأعراض لا تقوم إلا بالجسم، والأجسام متماثلة لأن جواهرها التي ركبت منها متماثلة قبل التركيب.

ونقول لهم عند نقض هذه الشبهة:

لا نسلم أن الصفات أعراض حتى يلزم منها الجسم.

وإذا سلمنا أن الصفات أعراض فلا نسلم أن الأجسام متماثلة لوجود الفرق الكبير بين جسم الذرة وجسم الفيل مثلاً.

وكل منهما يسمى جسمًا، علمًا بأن مسألة الجسم عند السلف لا يجوز إطلاق القول فيها لا نفيا ولا إثباتًا؛ لأن الصفات توقيفية ولم يرد في القرآن ولا في السنة إثبات للجسم ولا نفيه.

وبعض المعتزلة يسلكون طريقًا آخر في الاستدلال على نفي الصفات ويقولون إن أخص أوصاف الله القدم ولو أثبتنا له صفات قديمة لزم ذلك تعدد القدماء وهو شرك بالله في القدم فنفوا عنه الصفات لهذا المعنى، ويرَدُّ عليهم فيقال: إن صفات الله تعالى صفات قائمة بذاته ليست منفصلة عنه ولا بائنة منه حتى يلزم التعدد فهو سبحانه وتعالى واحد بذاته، موصوف بصفات الكمال، قديم وما سواه محدث.

الأشاعرة والكلابية والماتريدية :

الأشاعرة: قوم ينتسبون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ويزعمون أنهم على مذهبه في الصفات.

والواقع أنهم مخطئون في هذا الزعم لأن مذهب الأشعري الأول هو مذهب المعتزلة.

ومذهبه الأخير مذهب السلف ومذهب الأشاعرة في الصفات مخالف لمذهب المعتزلة، لأنهم يثبتون بعض الصفات والمعتزلة لا يثبتون شيئًا منها. ومخالف لمذهب السلف حيث إن السلف يثبتون لله جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة والأشاعرة لا يثبتون إلا بعضها وأنت بهذا ترى أن الأشاعرة أقرب إلى رأي الجهمية منهم إلى رأي السلف، وحقيقة مذهبهم في الصفات أنهم يثبتون لله صفات الذات وهي العلم والإرادة والحياة والقدرة والسمع والبصر والكلام.

وينفون عنه صفات الفعل كالغضب والرضا والرؤية والاستواء، وبعضهم يثبت صفات زائدة على هذه السبع، وشبهتهم في ذلك أن الصفات الفعلية حادثة.. والله سبحانه وتعالى منزه عن الحوادث.

والرد عليهم أن يقال: إن الصفات الفعلية وإن كانت تحدث آحادها فجنسها قديم فهي قديمة النوع حادثة الآحاد.

فأيضًا فلو قالوا مثلاً: إن الغضب غليان دم القلب فكيف يوصف الله به قيل لهم أنتم تثبتون الإرادة لله ومعلوم أن الإرادة ميل القلب إلى المراد فكيف تثبتونها لله... فلابد أن يقبلوا أن الإرادة التي تفسر بميل القلب هي إرادة المخلوقين.
أما إرادة الله: فإنها تخصه وتليق به،قيل لهم وكذلك الغضب الذي يفسر بغليان دم القلب هو غضب المخلوقين.. أما غضب الله: فإنه يخصه ويليق به وهكذا يقال في جميع الصفات الفعلية التي تنفونها.

أما الكلابية:

أتباع عبدالله بن سعيد بن كلاب، والماتريدية: أتباع أبي منصور الماتريدي فمذهبهم في الصفات مماثل لمذهب الأشاعرة لا يختلف عنه إلا في مسائل قليلة جداًّ(9).

المشبهة

المشبهة: أتباع هشام بن الحكم الرافضي وداود الجواربي وغيرهما وهؤلاء قوم أثبتوا لله الصفات ولكن غلوا في الإثبات حتى مثلوا الله بخلقه فقالوا: إن صفات الله الواردة في القرآن الكريم والسنة تماثل صفاتنا من كل وجه وقالوا: إن الله جسم مركب له طول وعرض وأعضاء وأبعاض تماثل أعضاءنا وأبعاضنا.
تعالى الله وتقدس عن قولهم علواًّ كبيراً، وهؤلاء كفار خارجون عن الإسلام وقد استدلوا على مذهبهم الفاسد بمطلق الإثبات الذي تضمنته آيات الصفات وأحاديثها.
ويرَدّ عليهم بنصوص النفي التي تضمنت تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين كقوله تعالى: ﴿ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11].
وكقوله: ﴿ وَلَمْ يكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: 4].
وقوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيا ﴾ [مريم: 65]. وغير ذلك كثير في القرآن مما يدل على نفي مشابهة المخلوقين أو مماثلتهم بشيء من صفاته سبحانه وتعالى(10).

* * *

(8) صحيح: انظر حديث رقم (2042) فى صحيح الجامع.
(9) التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية.
(10) التدمرية: لشيخ الإسلام ابن تيمية.

الإيمان بالمعاد

تمهيـد:

لقد بينا في البحث السابق وجوب وجود الله سبحانه وأقمنا عليه البراهين العقلية والعلمية التجريبية بما لا يدع للشك مجالاً في وجود الباري وأزليته سبحانه وتعالى، ولما كان الإيمان بالمعاد من أهم الأصول التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر أنها من أصول الإيمان لما سأله جبريل عن الإيمان.

فقد رأيت أن أُردف بحث الإيمان بالله بالبحث في المعاد لا سيما وقد كثر في القرآن ذكر الإيمان باليوم الآخر مقرونًا مع الإيمان بالله فلو استقرأنا كتاب الله لوجدنا فيه عشرات الآيات التي تجمع بين هذين الأصلين فقد تضمنت سورة البقرة وحدها بضع آيات تتضمن ذلك منها:

(أ) ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: 8].

(ب) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 62].

(ج) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: 126].

(د) ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: 228].

(هـ) ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: 232].

(و) ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: 177].

(ز) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: 264].

فهذه ثمانية مواضع في سورة واحدة ذكر فيها الإيمان باليوم الآخر مقرونًا مع الإيمان بالله إثباتًا ونفيا فما بالك بما في القرآن كله من هذا النمط؟

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون الإنسان منذ وجد على هذه الأرض من فئة مخلوقاته المزودة بصفات تؤهله للامتحان والابتلاء الرباني في مجال الحياة الدنيا وهذه الصفات هي:

1 ـ العقل المزود بالاستعداد لفهم النهي والأمر والتمييز بين الخير والشر والنفع والضر.

2 ـ الإرادة التي لها جانب من الحرية والتصرف.

3 ـ القدرة الظاهرة على تنفيذ بعض الأفعال التي يريدها.

ولما كان الإنسان مزودًا بهذه الصفات التي تكفي لتأهيله لمعرفته سبحانه وتعالى ومعرفة أمره ونهيه؛ وإخباره على ألسنة رسله أنه سيثيبه إن أطاع أوامره واجتنب مناهيه وأنه سيعاقبه إن عصى أوامره وارتكب مناهيه وجعل لهذا الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على الأعمال السيئة دار جزاء يصير إليها الإنسان بعد مفارقته لهذه الدنيا التي جعلت دار ابتلاء وامتحان كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور} ﴾ [الملك: 1، 2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: 2].

ولقد سار المؤمنون بالله واليوم الآخر على هذه الطريقة واعتقدوا وجوب الثواب والعقاب في الآخرة على الأعمال التي يعملها الإنسان في هذه الدنيا ووفقوا بين النصوص التي ضل فيها غيرهم فقيدوا نصوص الوحي المطلقة بالنصوص المقيدة وخصصوا النصوص العامة بالنصوص الخاصة..

أما الذين نبذوا كتاب الله وسنة نبيه وراء ظهورهم تكلموا في الجزاء والثواب والعقاب بغير علم ولا هدى فضلوا في هذا الباب وأخطئوا الصواب.

فقالت المعتزلة والقدرية: إن كلاًّ من الثواب والعقاب مرتب على الأعمال ترتيب العوض على المعوض ولا أثر في ذلك لمشيئة الله وإرادته وفضله وعفوه بل ذلك واجب على الله للعامل وجوبًا ذاتيا.

وقالت الجبرية: إن كلاًّ من الثواب والعقاب لا علاقة له بأفعال العباد ولا هو مترتب عليها لأن العباد ليست لهم أفعال اختيارية في نظر هؤلاء، إنما هي أفعال الله حقيقة لكن أضيفت إلى العبد مجازًا لأنه محلها.

وقد استدلت المعتزلة على مذهبهم في هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة:24].

واستدلت الجبرية بقوله صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل الجنة أحد منكم بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

أما السلف الذين وقفوا مع كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بعيدًا عن تحكيم الرأي وتقديمه على الوحي فإنهم جمعوا بين هذه النصوص ووفقوا بين دلالاتها فقالوا: إن الباء في قوله تعالى: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ للسببية أي أن العمل سبب في حصول الثواب إن كملت شروطه وانتفت موانعه ترتبت عليه مسبباته وإلا فلا.

ومن شروط ترتب الثواب على العمل أن تتحقق مشيئة الله وتفضله على عباده.

أما الباء في قوله صلى الله عليه وسلم : «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» فهي باء العوض أي لا يكون العمل عوض بمجرده بل لابد أن تنضم إليه مشيئة الله وتفضله.

وبعد هذا التمهيد الذي تضمن بيان مناسبة الإتيان ببحث البعث عقب بحث الإيمان بالله.
أبدأ ببيان المقصود وهو البعث ومواقف القيامة.

* * *

البـعـث

البعث لغة المصدر: بعثه يبعثه بعثًا.
وقد ورد استعمال البعث في اللغة العربية في معنيين أحدهما: الإرسال تقول بعثت فلانًا بكذا أي أرسلته ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ [النحل: 36] الآية.أي أرسلنا في كل جيل رسولاً.
المعنى الثاني: إحياء الأموات ومنه قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِي خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَه ﴾ [البقرة: 259].
وهذا المعنى الذي هو إحياء الأموات يعبر عنه بلفظ البعث كما ذكر ويعبر عنه بالنشر والنشور، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان: 35].
ومنه قول المهلهل بن ربيعة:
يا لبكر انشروا لي كليبا يا لبكر أين أين الفرار

أي: أحيوا لي كليبا بعد موته.
وهذا المعنى للبعث الذي هو إحياء الأموات يوم القيامة من قبورهم هو المقصود بالبحث في هذا الموضوع.
لقد اجتمعت الشرائع السماوية على أن البعث الجسماني آت لا محالة فجميع الرسل أنذروا أممهم ذلك اليوم وأخبروهم بأن الله سيبعثهم بعد موتهم ويجازيهم على أعمالهم.

* * *

طريقة القرآن الكريم

في إثبات البعث والرد على منكريه

لقد أكثر الله سبحانه من ذكر البعث في القرآن، وأقام الدليل عليه ورد على منكريه في غالب سور القرآن وهذا أمر لا يخفى على كل من قرأ كتاب الله

وتدبر آياته وتفهم أوجه دلالاته فمعظم سور القرآن تشتمل على ذكر البعث وبيان براهينه بأساليب مختلفة وعبارات متنوعة فتارة يذكر سبحانه وتعالى البعث بطريقة الإخبار المجرد كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُون ﴾ [المؤمنون:15، 16].

وتارة يأمر سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقسم على البعث كما في قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: 7].

وأحيانًا يكون الإخبار عن المعاد بطريقة إرشاد العقل وتنبيه المكلفين إلى البراهين العقلية التي من نظر فيها أدرك يقينًا قدرة الباري سبحانه وتعالى على إعادة الحياة مرة أخرى إلى الأجسام بعد فنائها واستحالتها، من ذلك:

1 ـ الاستدلال بالبدء على الإعادة، فإن كل عاقل يدرك يقينًا أن من قَدر على بدء خلق الإنسان وإيجاده من العدم فهو أقدر على إعادته مرة أخرى كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:27]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق:15].

أي: أحَصَلَ لنا شيء من العجز والإعياء عند خلقنا للإنسان أول مرة حتى تكونوا أيها المنكرون للبعث في شك وريب من قدرتنا عليه؟!

ومن هذا النمط في الاستدلال قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيا (66) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم: 66، 67].

أي: ويقول الإنسان متعجبًا ومستبعدًا إعادة الحياة إليه مرة أخرى بعد موته أئذا مت سوف تعود لي الحياة مرة أخرى؟ فأجيب على هذا التساؤل بقوله: ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم:67]. أي أيستبعد الإنسان إعادة الحياة إليه مرة أخرى ولا يذكر أن الله خلقه من قبل أن يكون شيئًا مذكورًا.

2 ـ ومن ذلك الاستدلال بقدرته سبحانه على إحياء الأرض بعد موتها على قدرته على البعث.

فإن كل عاقل نظر إلى الأرض وهي ميتة مجدبة ثم نظر إليها بعد أن كساها الله بأصناف النبات المختلفة الأشكال والألوان والزهور والثمار يدرك يقينًا أن من قدر على ذلك فهو على إحياء الأموات أقدر.

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج: 5، 6] إلخ.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ﴾ [فصلت: 39].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا يبين فيها سبحانه وتعالى قدرته على إعادة الحياة يوم القيامة إلى الأجسام مستدلاًّ على ذلك بقدرته على إحياء الأرض بعد موتها.

3 ـ ومنها الاستدلال بقدرته على خلق السموات والأرض على قدرته على البعث وذلك أن من قدر على خلق الشيء العظيم فهو على خلق ما دونه أقدر، ومعلوم أن خلق السموات والأرض أكبر وأعظم من خلق الناس وإعادتهم قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يعْلَمُونَ ﴾ [غافر: 57].

وقال تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ [النازعات:27].

وقال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يحْيِي الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: 33].

وهذا النوع من الاستدلال كثير في القرآن ومن الأساليب الكثيرة المتنوعة في القرآن في سوق الأدلة على إمكان البعث إخباره سبحانه وتعالى عن إحياء الأموات في الدنيا قبل يوم القيامة مثل قصة عزير وحماره حيث أماته الله مائة عام ثم بعثه يشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيةٍ وَهِي خَاوِيةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يوْمًا أَوْ بَعْضَ يوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَينَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: 259].

وكذلك قصة إبراهيم عليه السلام والطيور وإحياء الله لهن بعد أن جعل على كل جبل منهن جزءًا يشير إلى هذه القصة قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يأْتِينَكَ سَعْيا ﴾ [البقرة: 260].

ولو سقت ما في القرآن من الآيات الدالة على إثبات البعث لطال الكلام جدًّا وفيما ذكرته من الأدلة القرآنية مقنع وكاف في حصول القطع في ثبوت البعث الجسماني.

ومن أوضح الآيات القرآنية دلالة على إمكان المعاد الآيات من أواخر سورة (يس) من قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِي خَلْقَهُ قَالَ مَن يحْيِي الْعِظَامَ وَهِي رَمِيمٌ (78) قُلْ يحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: 78 ـ 80] إلى آخر السورة.

فلو رام أعلمهم وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها بألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضوح الأدلة وصحة البرهان لما قدر فإنه سبحانه وتعالى افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جوابًا فكان في قوله: ﴿ وَنَسِي خَلْقَهُ ﴾ ما يفي بالجواب وإقامة الحجة وإزالة الشبهة، ولما أراد سبحانه تأكيد الحجة وزيادة تقريرها قال: ﴿ قُلْ يحْيِيهَا

﴿ الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فاحتج بالبدء على الإعادة وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذه قدر على تلك، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته وكذلك الثاني فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لابد أن تكون مادتها وحالها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب معًا فقال: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم ثم أكمل هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: 81].

ثم أكد سبحانه وتعالى ذلك وبينه ببيان آخر وهو أنه ليس فعله كفعل غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والنصب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لابد معه من آلة ومعين أما هو سبحانه فيكفي لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكون (كن) فإذا هو كائن كما شاءه وأراده.

وهذا العرض الرائع للأدلة والتنظيم العجيب والترتيب المتقن والإكثار من الاستدلال هو الذي جعل الفلاسفة يدعون زورًا أن معاد الأبدان لم يفصح عنه أحد من الرسل ولم يخبر به أمته إلا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولقد كذبوا على الأنبياء وضلوا في هذا الباب فإن جميع الرسل أخبروا عن اليوم الآخر وبينوه لأممهم بيانًا كافيا إلا أن محمداً صلى الله عليه وسلم بين تفصيل اليوم الآخر بيانًا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء.

لأنه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ولأن القوم الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا ينكرون البعث أشد الإنكار ويرونه من الأمور المستحيلة الوقوع كما صرح بذلك العاص بن وائل حيث جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ عظمًا قد أرم ففته بيده وقال أتزعم يا محمد أن الله يقدر أن يحيي هذا، وكما حكى الله عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيءٌ عَجِيبٌ (2) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق: 1 ـ 3](11).

* * *

مذاهب الناس

فى البعث والجزاء يوم القيامة

لقد أجمع أهل الملل والشرائع السماوية بحسب أصولها الصحيحة على أن البعث حق لا شك فيه كما تقدم وذلك لأنه أمر جائز الوقوع عقلاً. وقد جاءت الأخبار الربانية الصريحة القاطعة في جميع الأصول الصحيحة للأديان والشرائع السماوية كافة بأنه من الأمور المقدرة المقضية بقضاء الله وقدره التي لا شك في وقوعها إذا جاء أجلها ، لذلك يجب التسليم لإخبار الله عز وجل والإيمان بما تضمنته دون تردد أو تأويل أو تحوير.

والإيمان بالبعث وإن كثرت أدلته في القرآن العزيز والسنة المطهرة وشرائع الرسل السابقين فقد أنكره بمفهومه الصحيح كثيرون ويمكننا أن نقسم هؤلاء المنكرين إلى ثلاثة أقسام:

الفرقة الأولى:

أن يقولوا كما حكى الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: 29].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: 24].

وطبيعي في هؤلاء أن ينكروا أمر البعث بعد أن أنكروا وجود الخالق الذي تظاهرت على إثباته جميع الأدلة المثبتة في كل ذرة من ذرات الكون وبعد أن جحدوا هذه الحقيقة الظاهرة التي يشهد لها ما لا يحصى من الأدلة في أنفسهم وفي الكون من حولهم فطبيعي أن ينكروا المعاد.

والرد على هؤلاء الوجوديين الذين جمعوا بين إنكار الخالق وإنكار البعث أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى قد أنكر على هؤلاء ورد عليهم في كتابه العزيز بلفت النظر إلى وجود الخالق العظيم من خلال مظاهر قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض وهذا الطريق من الاستدلال يأخذ بيد المنكرين إلى التعرف على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: حقيقة وجود الخالق العظيم الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

الحقيقة الثانية: إثبات البعث لأن من أقر بوجود الله وآمن بصفاته العظيمة كقدرته على كل شيء وعلمه المحيط بكل شيء وعدله بين خلقه وحكمته العظيمة أدرك يقينًا أنه لم يخلق هذا الخلق عبثًا بل لابد من أن يكون لهم دار للجزاء غير هذه الدار.

الفرقة الثانية:

وهم قسم من الذين يعترفون بوجود الخالق ويقرون بربوبيته ولكنهم يشركون به في العبادة وينكرون البعث ومن هذا القسم المشركون الوثنيون من العرب وغيرهم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس لهؤلاء من حجة إلا الاستبعاد المجرد وإظهار التعجب والاستغراب.

وقد حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق:2،3].

الفرقة الثالثة:

وهم قسم من الذين يعترفون بوجود الخالق ووحدانيته ولا يشركون معه أحدًا ولكنهم ينكرون البعث الجسدي ويثبتون الحياة الثانية بشكل روحاني فقط، وذلك لأنهم حكموا تصوراتهم الخاصة في أمور الغيب دون أن ينظروا إلى الحقائق التي جاءت بها الشرائع السماوية.

وليس لهؤلاء أدنى شبهة على إنكار المعاد الجسماني سوى استبعادهم لذلك وعدم الالتفات لما جاءت به الشرائع السماوية وطريقة القرآن العزيز في الرد على هاتين الفرقتين: الثانية والثالثة : هي استقصاء شبههم وحصر أوهامهم ثم نقضها شبهة شبهة كما تقدم في أول هذا البحث كاستدلاله بالبدء على الإعادة، واستدلاله بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الحياة إلى الأجسام يوم القيامة، واستدلاله بإخراج النار وهي ذات طبيعة حارة يابسة من الشجر الأخضر وطبيعته رطبة باردة، وكاستدلاله بخلق السموات والأرض على خلق الناس، إلى غير ذلك من أساليب المحاجة والمناظرة الواردة في القرآن العزيز على منكري البعث.

* * *

(11) شرح الطحاوية لعلي بن أبي العز الحنفي.

مواقف القيامة

لقد ذكر الله اليوم الآخر في كتابه العزيز وأخبر عن أحوال القيامة وما يكون فيها من الأهوال العظيمة وما يلاقون فيها من أنواع الفزع والخوف ما لا يعلمه إلا الله قال تعالى: ﴿ فَكَيفَ تَتَّقُونَ إن كَفَرْتُمْ يوْمًا يجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل: 17،18].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يوْمَ الآزِفَةِ إذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يطَاعُ ﴾ [غافر: 18].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يعْمَلُ الظَّالِمُونَ إنَّمَا يؤَخِّرُهُمْ لِيوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يرْتَدُّ إلَيهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: 42، 43]. ومن هذه المواقف عبور الصراط.

الــصـــراط :

تعريفه: الصراط في اللغة: الطريق الواضح تقول سلك فلان الصراط المستقيم أي الطريق الواضح.

ومن ذلك قول جرير:

أمير المؤمنين على صراط ____________

إذا عوج الموارد مستقيم ____________

وهو بالصاد والسين المهملتين وبالزاي على نزاع في إخلاصها ومضارعتها بين الصاد والزاي من سرطت الشيء بكسر الراء ابتلعته لأنه يبتلع المارة أي يغيبهم.

وفي الشرع: جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون ويحتمل أن يكون خلق عند خلق النار ويحتمل تأخر خلقه إلى يوم القيامة والله أعلم.

وقد استفاضت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر الصراط وبيان صفاته.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ويمر الناس على الصراط بقدر أعمالهم فمنهم من يمر كلمح البصر ومنهم من يمر كالبرق»

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم في بعض الآثار وصف الصراط بأنه دحض مزلة وأنه أدق من الشعرة وأحد من السيف،وهي آثار ضعيفة وقد ورد ذكر الصراط في القرآن كثيرًا، لكن المراد به الطريق المعنوي أي الدين والشريعة لأن الصراط يطلق تارة على الطريق الحسي كما ورد في الأحاديث عن الجسر المنصوب على متن جهنم وقد يطلق على الطريق المعنوي كقوله

تعالى: ﴿ وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فاتَّبِعُوه ﴾ [الأنعام:153] ومثل هذا كثير في القرآن، يعبر سبحانه وتعالى عن دينه وشرعه بالصراط.

ومن الأخبار الواردة في ذكر الصراط المستقيم ما رواه البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة..» إلى أن قال: « فيعطون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة إذا أضاء قدم قدمه وإذا طفئ قام فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحض مزلة فيقال لهم امضوا على قدر نوركم فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم كالريح ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كشد الرجل يرمل رملاً يمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه تخر يد وتعلق يد وتعلق رجل وتخر رجل وتصيب جوانبه النار فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحدًا».

والمرور على الصراط المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وإنْ مِنكم إلاَّ وَارِدهَا كَانَ عَلَى رَبِّك حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ [مريم:71].

وقد اختلف المفسرون في معنى الورود المذكور في هذه الآية على ثلاثة أقوال هي:

1 ـ أن المراد بالورود العبور على الصراط بالنسبة للمؤمنين الناجين، وأما غيرهم فورودهم دخول النار، وهذا أرجح الأقوال وعليه أكثر المفسرين ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذِينَ اتَّقَوْا ﴾ كما أورده بعضهم وقال: إن النجاة من الشيء لا تحصل إلا بعد الوقوع فيه والصواب عن هذا أن يقال لا نسلم أنه يلزم من النجاة من الأمر الوقوع فيه فإنه يجوز في اللغة أن تقول نجا فلان من الشر وإن لم يقع فيه إذا انعقدت أسبابه وكاد أن يصيبه والمؤمنون الذين يعبرون الصراط وينجون من النار قد انعقدت أسباب وقوعهم فيها لأنهم قد مروا من فوق ظهرها على الصراط وهو دحض مزلة، أحد من السيف وأدق من الشعرة إلا أن الله سلمهم بفضله وكرمه.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّينَا هُودًا ﴾ [هود:58] ومعلوم أن هودًا عليه السلام لم يقع في العذاب ومع هذا أخبر سبحانه أنه نجاه من العذاب.

2 ـ وقيل: المراد بالورود دخول النار لجميع الخلق إلا أنها لا تضر المؤمنين ولا يحسون بحرها وتكون عليهم بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم عليه السلام حينما ألقي في النار وهذا القول له وجه من الصحة لولا أنه يرد عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «لن يلج النار أحد بايع تحت الشجرة».

ولهذا سألت حفصة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يقول: ﴿ وَإن مِّنكُمْ إلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم:71] وأنت تقول: «لن يلج النار أحد بايع تحت الشجرة».

فقال صلى الله عليه وسلم: «إنما ذلك العبور على الصراط أما سمعتيه يقول : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا% ﴾ ح [مريم:72].

3 ـ وقيل: إن المراد بالورود الوقوف حول النار قريبًا منها والاطلاع عليها وليس المراد العبور على الصراط ولا الدخول فيها وهذا أضعف الأقوال وإن كان جائزًا لغة.

وقد استدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص: 23].

ووجه الاستدلال أن الله أخبر عن نبيه موسى عليه السلام أنه ورد ماء مدين ومعلوم أن موسى عليه السلام لم يدخل فى البئر وإنما وقف حولها ومع هذا عبر عن وقوفه بالورود.

* * *

عقائد الناس في الصراط:

لقد اتفق المسلمون ـ عدا طائفة من المعتزلة ـ على إثبات الصراط في الجملة وإن خالف بعضهم في صفاته ونستطيع أن نقسم المسلمين بالنسبة إلى إثبات الصراط إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ الجمهور من المسلمين: على إثبات الصراط بحقيقته وصفاته التي وردت في الآثار من كونه جسرًا منصوبًا على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة وأحر من الجمر إلى غير ذلك من الصفات التي تصور صعوبة سلوك الصراط وهؤلاء اعتمدوا على النصوص الكثيرة المستفيضة فأثبتوها على ظاهرها ولم يتعرضوا لتأويلها وصرفها عن ظواهرها.

2 ـ القسم الثاني: وهم طائفة من العلماء منهم عز الدين بن عبد السلام والقرافي وغيرهما وهؤلاء أثبتوا الصراط وآمنوا بوجوده وأنه منصوب على متن جهنم يمر المؤمنون عليه إلى الجنة لكنهم أنكروا كونه أدق من الشعرة وأحد من السيف وقالوا : إن ثبت هذا في الآثار فهو محمول على غير ظاهره لمنافاته للأحاديث الأخرى من قيام الملائكة على جنبتي الصراط وكون الكلاليب والحسك فيه وإعطاء كل من المارين عليه من النور قدر موضع قدميه.

وأوَّلَ ما ورد من وصف الصراط بأنه أحد من السيف وأدق من الشعرة بأن المراد يسر المرور عليه وعسره على قدر الطاعات والمعاصي ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى.

وقد جرت العادة بضرب المثل بدقة الشعر مثلاً للغامض الخفي، وأصحاب هذا الرأي أقرب للصواب في نظري لعدم ثبوت هذه الصفات عن النبي صلى الله عليه وسلم وليس لاستبعاد اتصاف الصراط بهذه الصفات فلو ثبت ذلك عنه صلى الله عليه وسلم لوجب الإيمان به لأن قدرة الله لا يعجزها شيء.

3 ـ القسم الثالث: طائفة من المعتزلة منهم القاضي عبد الجبار الهمذاني شيخ المعتزلة وهؤلاء أنكروا ما ثبت في الأحاديث من ثبوت الصراط زعمًا منهم أنه لا يمكن عبوره ولو قدر إمكانه لكان فيه تعذيب للمؤمنين.
والمؤمنون والصلحاء لا عذاب عليهم وإنما المراد بذكر الصراط في الأحاديث طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: 5].
وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: 23].
وهذا رأي باطل معارض للأخبار الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
والمعتزلة مولعون بمعارضة النصوص، واختراع الأقوال التي لا تقوم إلا على مجرد الرأي والهوى والقول على الله بلا علم والله أعلم.

* * *

المیزان:

تعريفه: الميزان مفعال من الوزن لأنه آلته، والمراد به هنا الميزان الذي ينصب يوم القيامة لوزن أعمال العباد وتمييزها.
وقد أجمع المسلمون ـ عدا المعتزلة ـ أن لله ميزانًا ينصب يوم القيامة وتوزن به أعمال العباد، وهو ميزان حسي له كفتان ولسان وقد استفاضت النصوص وتواترت من الكتاب والسنة على ثبوت الميزان وأنه حق.
فمن الكتاب:

أ ـ قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: 47].
ب ـ وقوله تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:8،9].
ج ـ وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة: 6 ـ 9].
ومن السنة:

أ ـ قوله صلى الله عليه وسلم: «كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم». صحيح البخاري.
ب ـ وقوله صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان» صحيح مسلم.
ج ـ وقوله صلى الله عليه وسلم: «إنهما لفي الميزان أثقل من جبل أحد».

وهذه النصوص وأمثالها مما لم يذكر كافية في القطع بوجود الميزان يوم القيامة فهي لا تدع مجالاً للشك في ثبوت الميزان يوم القيامة إلا من أعمى الله بصيرته كالمعتزلة الذين أنكروا الميزان وأعرضوا عن نصوص الكتاب والسنة التي دلت عليه واعتمدوا على رأيهم الفاسد فقالوا ليس لله حاجة في وزن أعمال عباده واستدلوا على هذا بأمرين:

1 ـ أن الأعمال أعراض والأعراض لا تقبل الوزن وإنما الذي يقبل الوزن ويوضع في الميزان الأجسام.

2_ أن الله سبحانه وتعالى عالم بأعمال العباد فلا يحتاج في تمييزها ومعرفة كيفيتها إلى الميزان، وإذا كان الله عالمًا بها مطلعًا عليها لا تخفى عليه منها خافية، كان وزنها والحالة هذه عبثًا، والله سبحانه وتعالى منـزه عن فعل العبث.

وقد أجاب الجمهور على هاتين الشبهتين بجواب مفحم لا يدع للمعتزلة أي تعليق فيما أوردوه فقالوا: أما قولكم: إن الأعمال أعراض والأعراض لا تقبل الوزن فالجواب عنه أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يقلب الأعراض ويحولها إلى أجسام، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا من ذلك فقال: «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح». اهـ الحديث.

ومعلوم أن الموت معنى وقد قلبه الله وصيره جسمًا.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الميت المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملكان...» إلى أن قال: «فيأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فوجهك الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح».

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قادرًا على جعل العمل رجلاً فهو قادر على جعل الأعراض أجسامًا قابلة للوزن.

2 ـ أما قولكم فإن الله عالم بأعمال العباد فلا يحتاج في معرفتها وتمييزها إلى ميزان فهذا صحيح، ولكن له في وزن الأعمال حِكَمٌ قد يظهر لنا بعضها ويخفى علينا الكثير، ومما ظهر لنا من الحكم إظهار العدل وإعذاره من عباده فإنه لا أحد أحب إليه العذر منه سبحانه من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين.

هل الوزن للأعمال أو للصحائف ؟

إننا إذا استقرأنا الأحاديث الواردة في ذكر الميزان أدركنا أن بعضها يدل على أن الوزن للأعمال وبعضها يدل على أن الوزن للعاملين وبعضها يدل على أن الوزن للصحائف، لأجل ذلك اختلف العلماء:

1 ـ فقالت طائفة: إن الوزن للأعمال لأن الأعمال هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب واستدلوا على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان» ومعلوم أن قوله: الحمد لله عمل من أعمال اللسان وقد صرح هذا الحديث بأنه هو الذي يوضع في الميزان فدل على أن الوزن يكون للعمل.

2 ـ وقال آخرون: بل الوزن لصحائف الأعمال واستدلوا على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث (البطاقة) الذي رواه عنه عبدالله بن عمرو وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة...» إلى قوله: «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة» (والبطاقة: صحائف) وقد وضعت في الميزان.

3 ـ وقول أن الوزن للعامل نفسه مستدلين بقوله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده إنهما لفي الميزان أثقل من جبل أحد» يعني ساقي عبدالله بن مسعود.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف:105]».

والراجح أن الوزن يكون للأعمال وصحائفها وللعاملين جمعًا بين النصوص المختلفة التي استدل بها كل فريق من أصحاب الأقوال السابقة.

* * *

الجنة والنار

تعريفهما:

الجنة في اللغة: عبارة عن البستان الذي تكثر فيه الأشجار المختلفة فتستر أرضه مأخوذة من جنَّ بمعنى ستر لأن مادة جَنَّ تدل على الستر والتغطية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيهِ اللَّيلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام: 76]، أي: فلما غطاه الليل وستره بظلامه، ومن هذا المعنى قول الراجز:

حتى إذا جن الظلام واختلط

ومن هذه المادة اشتقاق المجن، الآلة التي يتقي بها المحارب ويستتر عن السيوف والرماح قال عمر بن أبي ربيعة:

فمكان مجني دون من كدت أتقي

ثلاث شخوص كاعبان ومعصش2

أي فكانت هذه الفتيات الثلاثة سترًا لي ممن كنت أريد اتقاءهم والاستتار عن أعين الإنس، والجنين لاستتاره في بطن أمه.

أما الجنة شرعًا: فهي تلك الدار التي أعدها الله مستقرًّا لعباده المؤمنين بعد أن يبعثهم وقد أعد لهم فيها من أصناف النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِي لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:17].

أما النار: فهي هذا العنصر الشفاف المحرق، وفي الشرع: دار أعدها الله لعباده الكافرين عقابًا لهم على كفرهم.

وقد أعد لهم فيها من أصناف العذاب والنكال ما لا تقوى على تحمله الجبال الراسيات.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ [النبأ: 21، 22].

الجنة والنار موجودتان الآن:

وهما موجودتان الآن وما زال المسلمون يعتقدون أن الجنة والنار موجودتان فيهما من أصناف النعيم وأشكال العذاب، ولم يشك أحد من المسلمين في وجودهما لاستفاضة النصوص من الكتاب والسنة وتواترها على إثبات وجودهما فمن الكتاب قوله تعالى في الجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 133] وقوله في النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:24].

وقوله: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ [النبأ:21].

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: «عرضت علي الجنة والنار».

وقوله صلى الله عليه وسلم: «دخلت الجنة فإذا هي جنابذ اللؤلؤ».

وقوله صلى الله عليه وسلم: «اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

والقرآن والسنة مملوءان من أمثال هذه النصوص التي تعطي علمًا يقينًا بأن الجنة والنار قد خلقتا وفرغ من خلقهما.

خلاف المعتزلة في وجود الجنة والنار قبل يوم القيامة:

وقد خالفت القدرية والمعتزلة في خلق الجنة والنار قبل يوم القيامة فأنكروه وقالوا: إنه يلزم من خلقهما قبل يوم القيامة وصف أفعال الله بالعبث وعدم الحكمة ولما كان متقررًا عند المعتزلة وغيرهم أنه لا يقبل أي رأي مهما كان مصدره وصاحبه إلا بحجة التمسوا أدلة يزعمون أنها نص في عدم وجود الجنة والنار قبل يوم القيامة، فمن ذلك:

1 ـ قالوا: لو كان الله قد خلق الجنة والنار لبقيتا معطلتين عن السكان مددًا متطاولة وهذا عبث فإننا لو رأينا إنسانًا بنى بيتًا وأغلق أبوابه وهجره من السكنى سنين طويلة لحكمنا عليه بالعبث والله حكيم لا يفعل العبث.

واستدلوا أيضًا بقوله صلى الله عليه وسلم: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة

الماء وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله وبحمده» سنن الترمذي، ووجه الدلالة من الحديث في نظرهم أن الجنة إذا كانت قيعانًا وكان التسبيح غراسها لزم أنها معدومة.

2 ـ قالوا وكذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص: 88] يدل على أن الجنة والنار غير مخلوقتين قالوا ووجه الاستدلال من الآية أننا قد علمنا بالضرورة من الدين أن كل شيء يهلك ويفنى قبل يوم القيامة فلو كانت الجنة والنار موجودتين الآن للزم أن تهلكا وتفنيا ومعلوم بالضرورة أن الجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء.

مناقشة أدلة المعتزلة:

وقد أجاب الجمهور من المسلمين الذين لا يشكون في وجود الجنة والنار عن أدلتهم السابقة فقالوا:

أما قولكم أنه يلزم من خلقهما قبل يوم القيامة وصف أفعال الله بالعبث قياسًا على أفعال المخلوقين فالجواب من وجهين:

1 ـ أنه لا يجوز قياس الله على خلقه فكذلك لا يجوز قياس أفعاله سبحانه على أفعال خلقه فليس كل ما هو قبيح من العبد يكون قبيحًا من الله.

فإننا نعلم أن صفة الجبروت والكبرياء كمال لله سبحانه وتعالى، وهي صفة ذم وعيب في المخلوقين.

2 ـ لا نسلم أن يكون مثل هذا الفعل عبثًا حتى في حق المخلوقين لأنه يجوز أن يعد الإنسان بيتًا ويهيئه للسكن ويبقيه مدة قبل نزوله ولا يكون ذلك عبثًا لاسيما إذا علم أن ضيفًا عزيزًا يقدم عليه فإنه يهيئ له المسكن ويبقيه معطلاً إلى أن يقدم ذلك الضيف.

وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم: «لقيت إبراهيم...» الحديث فالجواب أن يقال: ليس في الحديث نص على ما تدعون من أن الجنة والنار معدومتان الآن بل بالعكس ففيه الدلالة على أن الجنة موجودة حيث وصفها إبراهيم عليه السلام بأنها طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان ووصفه لها عن مشاهدة ورؤية وأما أن كون غراسها سبحان الله فلا يتعارض مع وجودها بأننا لا ندعي أن الله سبحانه وتعالى بعد أن خلق الجنة والنار لا يحدث فيهما بناء ولا غراسًا أو عذابًا أو جحيمًا بل لا يزال يحدث فيهما من الغراس والبناء وغيرهما حتى بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فإنه يحدث لهم فيهما كل يوم من أصناف النعيم وأشكال العذاب.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ أن المراد من الآية عند المفسرين كل شيء كتب الله عليه الهلاك فإنه هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء فلا تدخلان تحت عموم هذه الآية.

خلود الجنة والنار وآراء الناس في ذلك:

لقد أجمع المسلمون على خلود الجنة والنار ما عدا الجهم بن صفوان فإنه قال بفناء الجنة والنار وما عدا طائفة من السلف فإنهم قالوا بفناء النار دون الجنة وكذا أبو الهذيل العلاف من المعتزلة قال بفناء حركات أهل الجنة والنار.
أجمع المسلمون عدا من ذكرت على أن الجنة والنار خالدتان باقيتان لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان ولم يشك أحد منهم في ذلك لاستفاضة الأدلة من الكتاب والسنة وتواترها على خلود الجنة والنار ومما ورد في الكتاب العزيز من أدلة خلود الجنة:

1 ـ قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: 108].

2 ـ وقوله تعالى: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: 35].

ومن نصوص الكتاب الدالة على خلود النار قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة:167]، وقال: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة:37]، وقوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان:65] أي: لازمًا لهم مقيم.

أما من السنة فقد دلت على ما دل عليه الكتاب العزيز من دوام الجنة والنار من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار فينادى مناد يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت» البخاري بمعناه.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «من يدخل الجنة ينعم فلا يبأس ويخلد فلا يموت» وقوله: «ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا وأن تشبوا فلا تهرموا أبدًا وأن تحيوا فلا تموتوا أبدًا».

وأمثال هذه النصوص في الكتاب والسنة كثير ومع هذه الأدلة الكثيرة التي تفيد القطع بخلود الجنة والنار فقد وقع خلاف في هذه المسألة ونستطيع أن نقسم الخلاف إلى أربعة أقسام:

1 ـ جمهور المسلمين يعتقدون بأن الجنة والنار باقيتان لا تفنيان كما تقدم ذلك مع أدلته.

2 ـ الجهم بن صفوان وأتباعه: أعرضوا عن هذه النصوص وحكموا آراءهم وعقولهم الفاسدة وخالفوا جماعة المسلمين وقالوا يجب عقلاً أن تفنى الجنة والنار ويفنى من فيهما.

وشبهة الجهم بن صفوان على هذا المذهب الباطل اعتقاده أن التسلسل في أفعال الباري كما كان له حد في الماضي يجب أن يكون له حد في المستقبل ولو دامت الجنة والنار يلزم دوام أفعال الله وللزم دوام الخلق ومشاركتهم لله في صفة البقاء والدوام، والرد على هذه الشبهة أن يقال:

1 ـ أن تسلسل أفعال الباري في الماضي والمستقبل أمر واجب لأن ذلك يعتبر كمال في حق الله سبحانه وتعالى لأن القول بانقطاع تسلسل أفعاله سبحانه وتعالى سواء كان من طرف الأول أو من طرف الأبد نقص لأنه يلزم على القول به أن يبقى الله سبحانه وتعالى معطلاً عن الفعل الذي هو من صفات كماله ووصفه بالعجز لأنه إذا امتنع عليه الفعل كان عاجزًا.

2 ـ وأما قوله أنه يلزم من دوام الجنة والنار ودوام أهلها مشاركة الخلق لله في صفة البقاء والدوام فالجواب أن يقال: إن هناك فرقًا كبيرًا بين دوام الله ودوام الجنة والنار فإن دوام الله سبحانه وتعالى واجب لذاته ولا يقبل العقل غيره أما دوام الجنة والنار ومن فيهما فجائز غير واجب عقلاً بل هو حاصل بإرادة الله وإبقائه لهما.

3 ـ أما أبو الهذيل العلاف أحد شيوخ المعتزلة فله مذهب في هذه المسألة يقرب من مذهب الجهم بن صفوان، فإنه يرى أن حركات أهل الجنة والنار تفنى وتنقطع ويبقون في سكون دائم لا يتحركون ولا يأكلون ولا يشربون ولا يحسون، ويقول: إن انقطاع الحركات كاف في انقطاع التسلسل في أفعال الباري في المستقبل وشبهته في هذا الرأي شبهة الجهم بن صفوان بعينها، والرد عليها عين الرد على شبهة الجهم.

4 ـ وقد ذهبت طائفة من أهل العلم من السلف والخلف إلى القول بفناء النار دون الجنة، بعد أن يمكث أهلها حقبًا ويطهرون من درن الكفر والشرك، وقد استدلّ أصحاب هذا الرأي بآثار وردت عن الصحابة وعمومات وظواهر من الكتاب والسنة.

فمن الآثار ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم وقت يخرجون فيه» ذكر ذلك عبد بن حميد في تفسيره. ومنها ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «ليأتين على النار يوم تصفق أبوابها من قلة الساكنين».

أما عمومات النصوص، وهي أقوى دلالة على ما ذهبوا إليه من الآثار الواردة في ذلك فهي:

قوله تعالى: ﴿ ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء ﴾ [الأعراف:156] ووجه الاستدلال من هذه الآية على فناء النار أن يقال : الكفار المعذبون شيء، ورحمة الله وسعت كل شيء، فلا بد أن تسعهم، فينقطع عنهم العذاب وذلك بفناء النار قالوا: وتعذيب الكفار ليس المراد لذاته وإنما هو مراد بالعرض الذي استحقوا العذاب لأجل ما عرض لهم من الشرك والكفر لتطهيرهم من درن الكفر والشرك فإذا لبثوا في النار مدة تكفي لتطهيرهم وتنقيتهم أصبح بقاؤهم في النار خلاف الحكمة.

ومما استدلوا به من عمومات السنة قوله صلى الله عليه وسلم: «لما قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي» وفي رواية: «تغلب غضبي» قالوا: فقد دل هذا الحديث على أن الرحمة تغلب الغضب ومعلوم أن الجنة أثر الرحمة وأن النار أثر الغضب فلابد أن تغلب الجنة النار فتبقى وتدوم وتفنى النار.

وقد أجاب هؤلاء القائلون بفناء النار دون الجنة عن النصوص الدالة على دوام النار وخلودها بأن قالوا كل ما ورد من ذلك حق نؤمن به ونعتقد معناه ولن يكون ذلك ما دامت النار موجودة فقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة:167] أي: ما دامت موجودة وقوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة:37]

أي: ما دامت موجودة باقية وهكذا فأولوا كل نص ورد في هذه المسألة بهذا المعنى، قالوا: ويدل على صحة هذا التأويل أنه لو حلف إنسان أن يحبس شخصًا في هذا البيت ولا يخرجه من حبسه أبدًا ثم خرب البيت وانهدم أن المحبوس يخرج منه ولا يحنث الحالف.

* * *

مقدمات اليوم الآخر

بعد أن انتهى الكلام في اليوم الآخر وبيان مواقف القيامة وأحوالها فلابد من الكلام على مقدمات اليوم الآخر وبيانها وهي:

1 ـ أشراط الساعة:

تعريفها: الأشراط جمع شرط بفتحتين أي العلامة وأشراط الساعة علاماتها، والساعة هي الزمن المحدد في علم الله لإنهاء نظام الدنيا وبدء اليوم الآخر ونظرًا إلي أهمية قيام الساعة واحتمال قيامها على غفلة من الناس فقد ذكرها الله في مواضع كثيرة من كتابه العزيز مؤكدًا قرب قيامها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: 1].

وقوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب:63].

وقوله: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد: 18].

وقوله: ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: 17، 18].

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم ما دلت عليه نصوص الكتاب العزيز من قرب قيام الساعة في أحاديث كثيرة جدًّا منها قوله صلى الله عليه وسلم:«بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى» وأكثر صلى الله عليه وسلم من ذكر علاماتها وأماراتها منبهًا على قرب وقوعها وعدم الاغترار بالغفلة عنها، ومع إيماننا بوقوعها وقطعنا بقرب ذلك، فإننا نجزم بأنه لا يمكن لأحد معرفة الوقت الذي تقوم فيه الساعة مهما كانت منزلته عند الله سبحانه وتعالى فإنه لا يعلم بقيام الساعة أحد؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل لأن علم الساعة من الأمور التي استأثر الله بعلمها قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ [لقمان: 34] أي: مختص سبحانه به وحده.

وقال تعالى: ﴿ يسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِي عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: 187].

ومن هذه الآيات والأحاديث الصريحة في اختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم الساعة نعلم أن كل محاولة لتحديد قيام الساعة بحساب أو غيره، قام بها بعض العلماء فهي محاولة خاطئة ومردودة على صاحبها بمقتضى هذه النصوص التي قدمناها وبهذا يعلم أن ما ذكره جلال الدين السيوطي رحمه الله من أن الساعة تقوم على رأس المائة الخامسة بعد الألف غير صحيح.

ولقد استشكل بعض العلماء معاني النصوص الدالة على قرب قيام الساعة لاسيما وقد مضت مئات السنين على الإخبار عن قرب قيامها ولم تقم.

والجواب عن هذا أن يقال: إن القرب المذكور في كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم قرب نسبي ـ أي ما بقي من الدنيا قليل بالنسبة إلى ما مضى منها، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى حيث قال في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لم يبق لكم في الدنيا بالنسبة للأمم السالفة إلا مثل ما بين العصر إلى غروب الشمس أي بالنسبة إلى كل اليوم».

* * *

أقسام أشراط الساعة

إننا إذا استقرأنا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتضمنة لبيان أشراط الساعة استطعنا أن نقسمها إلى أقسام ثلاثة وهي:

1 ـ علامات مضت وانتهت مثل موته صلى الله عليه وسلم، وفتح بيت المقدس، والفتن التي جرت كفتنة قتل عثمان وفتنة حروب الجمل وصفين وهذه العلامات أشار إليها صلى الله عليه وسلم في قوله: «اعدد ستًا بين يدي الساعة موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا» رواه البخاري.

2 ـ علامات ما زالت تحدث وسيستمر حدوثها إلى ظهور العلامات الكبرى ومن أمثلة هذا القسم قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع» وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا» وأمثلة هذا القسم كثيرة جدًّا منها: كثرة موت الفجأة وكثرة الفسق في القراء والتطاول في البنيان وأمثالها وتعرف عند العلماء بالعلامات الصغرى البعيدة.

3 ـ أما العلامات الكبرى والقريبة التي يعقبها قيام الساعة وهي القسم الثالث من أقسام أشراط الساعة ـ فعشر أو إحدى عشرة على الخلاف:
1 ـ المهدي:

رجل يخرج في آخر الزمان يحكم المسلمين ويقاتل اليهود يملأ الأرض عدلاً وإيمانًا كما ملئت جورًا وظلمًا، وهو من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه محمد بن عبدالله أو أحمد بن عبدالله وقد وردت فيه أحاديث كثيرة جدًّا إلا أنها لا تخلو من مقال لذا كان خروج المهدي محل نزاع بين العلماء. والتحقيق كما هو رأي ابن تيمية رحمه الله تعالى وكثير من المحققين: صحة الاحتجاج بالأحاديث الواردة في ذكر المهدي لأنها وإن كانت ضعيفة على رأي البعض فإنها تجبر بكثرة الطرق ومن أشهر الأحاديث عن المهدي قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يحكم رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض عدلاً وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا.
2 ـ الدجال:

خروج الدجال من أمارات الساعة الكبار، وهو العلامة الثانية، وهو رجل كافر يخرج في آخر الزمان يحكم الناس ويفتنهم عن دينهم، قيل يخرج من مصر وقيل: من خراسان في إيران وهو الراجح لصحة الأخبار الواردة في ذلك وهو فتنة عظيمة للناس لأن الله سبحانه وتعالى أعطاه الأموال وأعطاه القدرة الخارقة للعادة يقتل الرجل ثم يحييه على ما ورد.
يأمر السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت ومعه نهران أحدهما ماء بارد، وعذب والآخر نار محرقة، وقد أرشدنا صلى الله عليه وسلم إلى أن نختار نهر النار لو أدركنا الدجال على نهر الماء البارد وقال صلى الله عليه وسلم: «إن جنته نار وناره جنة» وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من نبي إلا وقد حذر أمته المسيح الدجال» ووصفه بأوصاف تميزه عن غيره خشية أن يخفى على الأمة فيفتنها، فقال عليه الصلاة والسلام: «الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية» وفي رواية: «أعور العين اليسرى».
وقد جمع العلماء بين الروايتين أنه أعور العينين، والعور هنا المراد به: العيب فكلٌّ من عينيه عوراء بمعنى معيبة لكن إحداهما لا تبصر والأخرى معيبة وإن كانت مبصرة لأن العور في اللغة: العيب وقال صلى الله عليه وسلم: «إنه ربعة آدم» وقال عليه الصلاة والسلام: «إنه جعد مكتوب بين عينيه (ك. ف. ر) يقرؤها كل مسلم قارئًا كان أو غير قارئ يبقى حكمه أربعين يومًا: يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وبقية أيامه كأيامنا هذه ويبقى في هذه المدة يعيث في الأرض فسادًا حتى ينزل عيسى ابن مريم فيقتله فتنتهي فتنته».
ومن هذه الأحاديث التي أشرت إليها وغيرها مما لم نذكره يتضح بطلان رأي بعض الجهلة والأدعياء على الشريعة الذين لم يصلوا إلى درجة التحقيق في

النصوص والذين قالوا: إن الدجال عبارة عن المبادئ الهدامة (الشيوعية) وما يماثلها أو عبارة عن الدجل والشعوذة أو المادة التي فتنت الناس وكانت أهم أمورهم وغاية مطلبهم حيث غيرت سلوكهم وأخلاقهم لأن الأحاديث صريحة كل الصراحة بأن الدجال رجل إذ الأوصاف التي وصف بها لا تنطبق إلا على إنسان حقيقي.

3 ـ نزول عيسى ابن مريم عليه السلام:

نزول عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان من علامات الساعة الكبرى، ولقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن عيسى ابن مريم عليه السلام ينزل في آخر الزمان حكمًا عدلاً يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية... وكذلك القرآن أشار إلى نزوله بقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:159] وقال: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:157،158].

ويكون نزوله عليه السلام بالشام ويحكم الناس بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ويقتل الدجال.

4 ـ يأجوج ومأجوج:

خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى القريبة وقد ذكر يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: 96].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف: 93، 94].

وهم أمتان عظيمتان من بني آدم على الراجح من نسل يافث بن نوح يخرجون في آخر الزمان ويفسدون في الأرض وقد جعل الله لخروجهم أجلاً لا يخرجون قبله، كما قال تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف: 98].

وقد ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن يأجوج ومأجوج أمة الصين نظرًا إلى أنهم أكثر الأمم ولأنهم ذوو نزعة إجرامية ولأن الكرة الأرضية قد تم اكتشافها ولم يعثر على يأجوج ومأجوج الواردة في الأحاديث، وهذا الرأي غير صحيح لمصادمته النصوص كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف: 95_97].

فهذا النص الصريح في أن يأجوج ومأجوج قد حجز ذو القرنين بيننا وبينهم بسد حسي من الحديد والنحاس لا يستطيع يأجوج ومأجوج ظهوره ولا نقبه حتى يأتي أمر اللّه، فلو كانت الصين هي يأجوج ومأجوج لوُجِد السدّ وشوهد لأنه مادي محسوس، ولا يصح القول بأن المراد بالسد منع الله للصين من التسلط على الناس والخروج عليهم وأن السد أمر معنوي لأنه يلزم على هذا التعبير صرف الكلام عن حقيقته إلى مجازه بلا قرينة وهذا لا يجوز عند علماء البيان أما كون الكرة الأرضية اكتشفت ولم يعثر عليهم فهذا لا يستقيم من جهتين:

1 ـ أن الكرة لم تكتشف جميع أجزائها بل لا تزال بعض أجزائها مجهولة.

2 ـ وحتى لو اكتشفت بالفعل لم يكن ذلك كافيا بالقطع بأن الصين هم يأجوج ومأجوج لاحتمال أن يكون الله أخفى هاتين الأمتين وصرف أعين الناس عنهم إلى أن يأتي وعد الله بخروجهم.

وقد دل القرآن على أن السد مادي محسوس فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بما يتفق مع القرآن فقال: «ويل للعرب من أمر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا» وشبك بين أصابعه.

5 ـ دابة الأرض:

هي دابة عظيمة الخلق غريبة الشكل لم تكن معهودة للناس وهي المشار إليها في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يوقِنُونَ ﴾ [النمل: 82].

وقد وردت في ذكر الدابة وأوصافها ومكان خروجها آثار كثيرة منها المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومنها الموقوف على الصحابة، وآثار عن التابعين ـ وأكثر الأقوال على أنها دابة عظيمة ذات قوائم يقال لها الجساسة تكلِّم الناس وتسمهم.

قيل: طولها ستون ذراعًا وفيها أوصاف الكثير من الحيوانات.

وقيل: هي فصيل ناقة صالح الذي دخل الصخرة وانطبقت عليه عندما عقرت أمه.

وأكثر الأقوال أنها تخرج من مكة من المسجد الحرام، أو من جبل الصفا، وإما من شعب أجياد، وقيل تخرج ثلاث مرات.

وعلى كل حال فإنه يجب الإيمان بخروج هذه الدابة عند قيام الساعة لثبوت ذلك في القرآن، وأما شكلها أو المكان الذي تخرج فيه فالله أعلم به

ومن الآثار الواردة في الدابة ما روى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبًا».

ومنها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:«بئس الشعب شعب أجياد _ مرتين أو ثلاثًا _» قيل: ولِمَ يا رسول الله؟!

قال: «تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها ما بين الخافقين فتكلم الناس بالعربية بلسان ذلق وذلك قوله تعالى: ﴿ تُكَلِّمُهُم ﴾ ».

6 ـ طلوع الشمس من مغربها:

وهي من آخر الآيات ظهورًا، وقد اختلف أيهما يكون قبل خروج الدابة أو طلوع الشمس من مغربها، مع اتفاقهم على أن زمنهما متقارب جدًّا إذا ظهرت إحداهما فالأخرى تليها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا كلهم فذلك حيث لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» .
أما الإيمان الذي يكون موجودًا قبل ذلك ثم يستمر بعد طلوع الشمس من مغربها فإنه ينفع صاحبه.
فإن قيل: قد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة» ومعلوم أن الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام قبل ذلك، فالجواب أن يقال: إن طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة أول الآيات غير المألوفة في الناس، لأن الناس قد ألفوا طلوع الشمس من المشرق، فإذا طلعت من المغرب على غير عادتها كان ذلك أمرًا غريبًا عليهم، وأما الدابة فهي غريبة على الناس ولم يسبق أن رأوا حيوانًا يماثلها لا في الشكل ولا في التركيب ولا في كبر الجسم وضخامته.
أما الدجال وعيسى ابن مريم فهم أشخاص مألوفون ومعروفون للناس.

7 ـ الدخان:

من أمارات الساعة الكبار على أحد أقوال المفسرين قوله تعالى: ﴿ يوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَان مُبِين(10) يغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيم ﴾ [الدخان:10،11] . فقد روي عن علي وابن عباس وابن عمر وأبي هريرة، وزيد ابن علي، والحسن أن الدخان يظهر في العالم في آخر الزمان يكون علامة على قرب الساعة يملأ ما بين المشرق والمغرب وما بين السماء والأرض يمكث أربعين يومًا وليلة. أما المؤمن فيصيبه كالزكام ، وأما الكافر فيصير كالسكران فيملأ جوفه ويخرج من منخريه وأذنيه وتكون الأرض كلها كبيت أوقدت فيه النار.
أما القول الثاني في تفسير الدخان: أن الدخان ما أصاب قريشًا من شدة الجوع بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانًا فلمَّا اشتدَّ عليهم الجهد جاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحمن وإن قومك قد هلكوا فادع الله أن يكشف عنهم.
وهذا قول ابن مسعود وابن عباس أيضًا ومقاتل ومجاهد والفراء والزجاج، وهذا القول أقوى وأمشى مع ظاهر الآيات، فإن قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُون ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُون ﴾ يدل على أن

هذا الدخان يكون قبل أمارات الساعة، إذ لا يمكن أن يسأل الله أن يكشف عنهم العذاب بعد ظهور أمارات الساعة كما أن الإيمان لا ينفع بعد ذلك.
القول الثالث: أن المراد بالدخان المذكور في الآية الغبار الذي غشي مكة يوم الفتح من ازدحام جيوش الإسلام حتى حجب الأبصار عن رؤية السماء. وهذا القول أضعف الأقوال الثلاثة.

* * *

ثانيا: البرزخ

إن كل إنسان لابد له من ثلاث مراحل يمر بها من ولادته إلى أن يستقر في الجنة أو في النار.
المرحلة الأولى: الدنيا: يبقى الإنسان فيها من بلوغه إلى أن ينتهي أجله ويفارقها مكلفًا بفعل أوامر الله ورسوله وترك معاصيه فإن امتثل وفعل ما كلف به وخلق من أجله أثيب عليه في الآخرة وإن ترك ما كلف به وخلق من أجله عوقب عليه في الآخرة.
تعريف البرزخ:

هو في اللغة الحاجز بين الشيئين ومنه قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: 19، 20].
وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: 53].
وسميت الفترة التي تبدأ بموت الإنسان وتنتهي ببعثه يوم القيامة برزخًا لأنها تحجز بين الدنيا والآخرة، وقد جاء في القرآن الإشارة إلى البرزخ في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: 99، 100].
أحوال البرزخ:

1 ـ سؤال الملكين في القبر:

من الأمور التي اتفق المسلمون على الإيمان بها: سؤال الملكين للميت في قبره عن: ربه ودينه ونبيه.
وأكثر العلماء على أن السؤال في القبر يكون عن هذه الأحوال الثلاثة، ولا يسأل الميت عن غيرها، جاء في حديث البراء بن عازب الذي أخرجه أحمد، وأبو داود: أن العبد إذا وضع في قبره، يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبدالله ورسوله» صحيح البخاري ومسلم.

والسؤال في القبر يكون للمؤمن والمنافق والكافر كما دلت على ذلك الأحاديث بخلاف ما ذهب إليه ابن عبد البر وغيره من أن السؤال خاص بالمؤمن والمنافق دون الكافر كما يؤيد العموم ظاهر قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم:37].

ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن المرادٍ بالتثبيت في هذه الآية التثبيت عند السؤال في القبر وليس السؤال خاصًّا بهذه الأمة كما ظنه بعضهم بل هو عام لها وللأمم قبلها. كل أمة تسأل عن ربها، ودينها، ونبيها.

2 ـ عذاب القبر ونعيمه:

لقد اتفق المسلمون ما عدا طائفة من المعتزلة فإنهم أنكروا عذاب القبر ونعيمه وردوا الأخبار الكثيرة الواردة في ذلك بمجرد أن عقولهم تستبعد حصول العذاب أو النعيم بعد أن يبلى الإنسان ويتحلل جسمه.

لو آمن هؤلاء المبتدعة بالنصوص واعتقدوا معناها وتصوروا عظم قدرة الله على كل شيء لما استبعدوا عذاب البرزخ ومن النصوص الدالة على عذاب القبر قوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر:45، 46]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ [السجدة:12] وهذا أحد الأوجه في تفسير هذه الآية أعني تفسير العذاب الأدنى بعذاب البرزخ، وقال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ [الطور: 45 ـ 47].

وأما الأحاديث الواردة في عذاب القبر فكثيرة جدًّا منها:

ما روت عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر فقال: «نعم عذاب القبر حق» صحيح البخاري ومسلم.

ومنها ما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال» صحيح مسلم.

ومنها ما رواه زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار علي بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت أن تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر» فقال رجل: أنا، فقال: «متى مات هؤلاء» فقال: ماتوا

في الإشراك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها ولولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع». ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر» صحيح مسلم.

ومنها ما روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة» فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وغرز على كل قبر واحدة وقال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا» صحيح البخاري.

وكما تواترت النصوص واستفاضت في بيان عذاب القبر فكذلك النعيم، جاء في السنة الكثير من الأحاديث التي تدل على أنَّ المؤمن ينعم في البرزخ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه حيث جاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكر احتضار المؤمن والصعود بروحه إلى السماء ثم إعادتها إلى الأرض قال: «فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا من الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره» سنن أبي داود ومسند الإمام أحمد.

وقال عليه الصلاة والسلام: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة» وقال: «لما أصيب إخوانكم ـ يعني في أحد ـ جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة وترد أنهارها وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش» مسند الإمام أحمد.

وكل إنسان استحق العذاب أو النعيم في البرزخ فلابد أن يناله نصيبه من ذلك قُبر أو لم يقبر، وتسميته بعذاب القبر باعتبار الغالب لأن أغلب الأموات يقبرون وقد اختلف المقرون بعذاب القبر ونعيمه هل يكون على الروح أو على الروح والبدن جميعًا؟ فأكثر السلف على أن العذاب والنعيم في البرزخ يكون على الروح والبدن جميعًا إلا أن الروح أوفر نصيبًا في ذلك، وقال آخرون منهم الإمام أبو محمد علي بن حزم: إن العذاب للروح دون البدن.

قال ابن القيم رحمه الله في كتاب «الروح» حول هذا المعنى:

«إن الدور ثلاث: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكامًا تخصها وركب هذا الإنسان من روح وبدن وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبعًا لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعًا لها فإذا جاء يوم حشر الأجسام وقيام الناس من قبورهم صار حكم النعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعًا» انتهى.

يعني رحمه الله بهذا الكلام: أن الذي ينعم أو يعذب في القبر الروح إلا أن البدن يناله قسط من ذلك كما كان العذاب والنعيم في الدنيا للبدن وينال

الروح نصيبها من ذلك وبمناسبة ذكر الروح هنا فلابد من بيان حقيقتها وآراء الناس فيها.

* * *

الـــروح

إذا تحدثنا عن الروح فإننا نقصد الحديث عن هذا الجسم اللطيف الذي يعمر بدن الإنسان زمن الحياة، ويكسبه الحس والحركة والحياة، وينفصل عنه ويفارقه عند الوفاة.

وهذا الموضوع ـ أعني البحث في الروح ـ يتضمن بيان حقيقة الروح ووجودها، والخلاف في حدوثها وأزليتها، وهل الروح غير النفس أو هما لفظان مترادفان ومسماهما واحد، وهل تفنى الروح بعد مفارقتها للبدن وانفصالها عنه أو هي باقية خالدة.

حقيقة الروح:

لقد أكثر الناس من الكلام ببيان حقيقة الروح وتباينت آراؤهم فيها واختلفت مذاهبهم واضطربت أقوالهم لأن أكثر تلك الأقوال لم يعتمد على حجج واضحة أو براهين صحيحة وإنما قام على الظن والتخمين، والظن لا ينفع في الأمور الغائبة ولا يصلح حجة يعتمد عليها.

فقيل: الروح عبارة عن عرض من أعراض البدن به تكون الحياة، وبزواله تكون الوفاة.

وقيل: الروح عبارة عن اعتدال الطبائع الأربع: الحرارة ، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة.

وقيل: الروح الحرارة الغريزية الموجودة في البدن وقت الحياة.

وقيل: هي الدم الصافي الخالي من الكدرة والعفونات.

وهذه الأقوال كلها باطلة، وتدل على كفر صاحبها وإنكاره للمعاد، لأن كلا من العرض واعتدال الطبائع تذهب وتنعدم بالموت، ولا تبقى لتعذب أو تنعم في البرزخ وتعود إلى الأبدان عند بعثها وإخراجها يوم القيامة.

وأحسن ما قيل في بيان حقيقة الروح هو ما دلت عليه عمومات الكتاب والسنة، أنها جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيه سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم.

وهذا التعريف هو الذي اختاره ابن القيم ونصره وأورد عليه أكثر من مائة دليل من الكتاب والسنة، وهي وإن كانت عمومات إلا أنها لكثرتها تؤيد هذا القول وتدل عليه ومن تلك الأدلة قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ [الأنعام: 93].

فإنها دلت على أن الروح جسم من عدة وجوه:

أولاً: قوله: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيدِيهِمْ ﴾ فلو لم تكن الروح جسمًا يصلح لبسط اليد وقبضها لم يكن لبسط الملائكة أيديهم معنى عند احتضار الكافر.

ثانيا: قوله: ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ وجه الاستدلال أن الروح لو لم تكن جسمًا يقبل الخروج والإخراج والخطاب لم يكن لقوله أخرجوا أنفسكم معنى.

ثالثًا: قوله: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ مخاطبة الروح وتوبيخها دليل على أنها جسم يقبل الخطاب والتوبيخ.

ومن الأدلة أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الروح إذا خرج تبعه البصر» وفي هذا دليل واضح على أن الروح شيء يرى ويتبعه البصر.

وأصرح من هذا الحديث في الدلالة حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وقد جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه من السماء ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن...» الحديث(12).

فخروجها من البدن وأخذ ملك الموت لها وأخذ الملائكة إياها من ملك الموت ووضعها في الكفن كل ذلك يدل على أن الروح جسم.

والنصوص الدالة على عذاب الروح ونعيمها في البرزخ تدل على أنها جسم وهي كثيرة جداًّ منها قوله صلى الله عليه وسلم: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة».

* * *

الخلاف في حدوث الروح

لم يكن الخلاف قاصرًا على بيان حقيقة الروح وشرح ماهيتها فلقد تنازع الناس في الروح هل هي قديمة أزلية لم يسبقها عدم؟ أو هي حادثة مخلوقة كسائر المخلوقات؟ فكثير من الفلاسفة وعلى رأسهم ابن سيناء يرون أن الروح قديمة أزلية وأنها هبطت على الإنسان من العالم العلوي قسرًا عنها ولقد تعصب ابن سيناء لهذا الرأي في أكثر كتبه حتى قال قصيدته المشهورة في هذا المعنى تعرف بعينية ابن سينا أو النفسية، ومن أبيات هذه القصيدة قوله:

هبطت إليك من المحل الأرفع ____________

ورقاء ذات تعزز وترفع ____________

محجوبة عن كل مقلة عارف ____________

وهي التي سفرت ولم تتبرقع ____________
وصلت على كره إليك وربما ____________

كرهت فراقك وهي ذات تفجع ____________
ألفت وما سكنت فلما واصلت ____________

ألفت مجاورة الخراب البلقع ____________
وأظنها نسيت عهودًا بالحمى ____________

ومنازلاً بفراقها لم تقنع ____________
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ____________

عن جسم مركزها بذات الأجرع ____________
علقت بها تاء الثقيل فأصبحت ____________

بين المعالم والطلول الخضع ____________
تبكي وقد ذكرت عهودًا بالحمى ____________

بمدامع تهمي ولما تقلع ____________
وتظل ساجحة على الدمن التي ____________

درست بتكرار الرياح الأربع ____________
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها ____________

قفص عن الأوج الفسيح المربع ____________

ومنها أيضًا قوله:

فلا شيء أهبطت من شاهق ____________

عال إلى قمر الحضيض الأوضع ____________

ونحن إذا تأملنا أبيات هذه القصيدة ظهر لنا بوضوح رأي ابن سينا في هذه المسألة، فإنه صور النفس البشرية بحمامة هبطت من أعلى مكان وأقدسه إلى أسفل مكان وأوضعه فهو يقول: إن النفس البشرية كانت ذات سمو وعلو في العالم العلوي بعيدة عن أن يدركها مدرك حتى ولو كان من العارفين الذين سخرت لهم طبائع الأشياء وكشف لهم من الغيب ما يدركون به بعض العالم الغائب على حد زعمهم.

ومن هذا المحل الرفيع أهبطت إلى الأرض إلى جسم الإنسان مكرهة تبكي فسكنت جسم الإنسان فألفته وكرهت فراقه وأصبحت بسبب هبوطها الذي فارقت به أوجهًا وعلوها أرضية ثقيلة تأنس بكل أرض فنسيت عهد العلو والسمو بسبب الشرك والأقفاص التي حبست فيها وهي أجسام البشر.

ولما كان قول الفلاسفة بقدم الروح مجرد دعوى ومعلوم أن كل دعوى تفتقر في ثبوتها إلى حجة وبرهان يدعمها فقد بحث أصحاب هذا الرأي الفاسد عن شيء يدعمون به رأيهم فلم يجدوا إلا ظواهر آيات لا تدل على ما ذهبوا إليه، فمن ذلك استدلالهم بظاهر قوله تعالى: ﴿ قُلْ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ،وقوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْت فِيهِ مِنْ روحِي ﴾ ووجه استدلالهم من الآية الأولى أن الروح إذا كانت من أمر الله فأمر الله قوله، وقوله صفة من صفاته وصفاته قديمة، إذًا فالروح قديمة. ووجه استدلالهم من الآية الثانية أن إضافة الروح إلى الله تقتضي قدمها كما أن إضافة العلم والقدرة وغيرهما من صفات الباري إليه سبحانه تدل على قدمها.

مناقشة الدليلين:

أ ـ مناقشة أدلة القائلين بقدم الروح:

أولاً: ﴿ قلْ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ الأمر يطلق ويراد به الأمر الطلبي ، أي: القول ويطلق ويراد به الشأن، والمأمور والروح من أمر الله الذي هو الشأن، والمأمور لا من أمر الله الذي هو القول ومعلوم أن كل شأن ومأمور مخلوق لتكون الروح من سائر مخلوقات الله ويتضح الفرق بين الأمرين عند الجمع فإن الأمر الذي بمعنى الشأن يجمع على أمور، أما الأمر القولي فإنه يجمع على أوامر.

ثانيا: ﴿ وَنَفَخْت فِيهِ مِنْ رّوحِي ﴾ إضافة الروح إلى الله سبحانه وتعالى من باب إضافة المخلوق إلى خالقه لا من إضافة الصفة إلى الموصوف، والإضافة إلى الله نوعان: إضافة ذوات، كعبد الله وبيت الله وناقة الله وروح الله، وإضافة صفة إلى الموصوف كعلم الله وقدرة الله وحياة الله.

الرأي الثاني:

الروح محدثة بعد أن لم تكن مخلوقة مربوبة كغيرها من سائر المخلوقات، وهذا هو القول الصحيح، وقد أجمعت عليه الرسالات السماوية وهو ما يؤيده

العقل والفطرة السليمة والقياس، فإن كل ما سوى الله حادث، والروح غير الله وصفاته؛ فهي حادثة، ولقد جاءت الدلالة في القرآن الكريم في أكثر من آية على أن الروح حادثة بعد أن لم تكن، من ذلك ما يأتي:

أ ـ قوله تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ وجه الاستدلال من الآية أن يقال : الروح شيء وكل شيء مخلوق ينتج الروح مخلوق لأن القاعدة المنطقية في مثل هذا القياس أن تكون النتيجة مركبة من موضوع المقدمة الصغرى ومحمول الكبرى.

ب ـ قال تعالى: ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا ﴾ وجه الاستدلال من الآية أن الله تعالى أخبر أن زكريا عليه السلام لم يكن شيئًا قبل خلقه له، ومعلوم أن الإنسان عبارة عن بدن وروح، والخطاب في الآية لزكريا لبدنه وروحه.

ومثل هذه الآية في الدلالة على حدوث الروح قوله تعالى: ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا ﴾ .

وبما ذكرته يتضح لك أن الروح محدثة مخلوقة من عدم، وأن الله سبحانه وتعالى هو المختص بالأولية والقدم وحده ودون من سواه.

الخلاف في سبق الروح للبدن في الحدوث أو تأخرها عنه:

كما تنازع الناس في قدم الروح وحدوثها تنازع القائلون بأنها محدثة في هل كان حدوثها سابقًا لخلق البدن أو متأخرًا عنه، فذهبت طائفة منهم الإمام أبو محمد بن حزم الأندلسي ومحمد بن نصر المروزي إلى أن الأرواح سابقة للأبدان في الحدوث فيقولون: إن الله خلق الأرواح يوم أخذ الميثاق على آدم واستخرج ذريته من ظهره وأنه أودعها في مكامن خاصة بها ثم يرسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة فإذا تكون الجنين في الرحم وبلغ مرحلة نفخ الروح أرسلت إليه روحه من مكمنها بواسطة الملك واستدلوا على هذا الرأي بأدلة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا للمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِم ذُرِّيتِهِم وأشهدهم على أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله مسح ظهر آدم فاستَخْرَجَ ذُريته كالذر».

وجه استدلالهم من الآية الأولى أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بأنه خلقنا وصورنا قبل أمر الملائكة بالسجود لآدم لأنه عطف أمر الله للملائكة بالسجود على خلقنا وتصويرنا بثم وهي للتراخي، ومعلوم أن أبداننا لم تخلق إلا بعد خلق أبينا آدم وسجود الملائكة له فتعين أن الخلق والتصوير المذكورين في الآية كانا للأرواح أما وجه الاستدلال من الآية الثانية والحديث أن الآية تضمنت الإشارة إلى أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه قبل خلق أبدان ذريته كما يبين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «إن الله مسح ظهر آدم فاستخرج ذريته» أي: أرواحهم.

مناقشة الأدلة:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا للمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ الآية.. الخلق والتصوير المذكوران في هذه الآية الكريمة المراد بهما خلق آدم وتصويره، وكون الخطاب بصيغة الجمع لا يمنع هذا التفسير إذ من الجائز في اللغة أن يرد الخطاب بلفظ الجمع ويراد به واحد لأهميته وكونه داخلاً في المجموع.
أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيتَهُمْ ﴾ [الأعراف:172] فاستدلال غير صحيح لأن الآية المذكورة لا تدل على أن الله استخرج أرواح ذرية آدم من ظهره قبل خلق بنيه وإنما تدل على أن الله أخرج من بني آدم ذريتهم بعضهم من بعض، نعم يكون في الآية دليل على ما ذهبوا إليه لو كان لفظ الآية (وإذ أخذ ربك من آدم من ظهره ذريته) لكنه قال: ﴿ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأعراف:172].
الرأي الثاني في المسألة:

أن خلق الأبدان متقدم على حدوث الأرواح وإلى هذا القول ذهب أكثر العلماء منهم تقي الدين شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ ابن القيم وأكثر المحققين وهو الذي تشهد له الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة ومن أدلة هذا القول من الكتاب قوله تعالى: ﴿ يا أَيها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: 1] وجه الاستدلال أن الآية صرحت بأن خلق جملة النوع الإنساني حدث بعد خلق أصله بدلالة من قوله تعالى: ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ على هذا المعنى.
ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك» إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح»فلو كانت الروح موجودة قبل ذلك لقال: ثم يرسل إليه الروح لكنه قال: فينفخ فيه الروح، تدل على أنها تحدث وقت النفخ بأمر الله.

* * *

الفرق بين الروح والنفس

لقد بحث العلماء هذه المسألة أعني مسألة الفرق بين النفس والروح وتوصلوا إلى نتيجة هي أن لفظ النفس ولفظ الروح لفظان مترادفان يدلان على مسمى واحد، من حيث الوضع اللغوي: هو الروح التي تكون في بدن الإنسان في الحياة وتفارقه بالموت(13).

ولا يرد على هذا الرأي أن لفظ النفس قد يطلق على أمور لا يصح إطلاق لفظ الروح عليها كإطلاق النفس على الدم لأن ذلك عن طريق المجاز لا بمقتضى الوضع اللغوي فإن قول السموأل بن عاديا اليهودي:

تسيل على حد الضباة نفوسنا

وليست على غير الضباة تسيل

لا يعني أن أرواح قومه تسيل على أطراف السيوف والرماح وإنما يعني أن دماءهم هي التي تسيل على سبيل المجاز لعلاقة ملازمة خروج الروح لسيلان الدم الكثير جداًّ في الغالب وكما أن النفس تطلق على معان لا تطلق عليها الروح فكذلك يجوز إطلاق لفظ الروح مجازًا على معان لا يصح إطلاق لفظ النفس عليها كإطلاق بعضهم الروح على الهواء المتردد في بدن الإنسان، وحسب ظني أن العلاقة في التجوز في إطلاق الروح على الهواء أن الريح أصلها الهواء المتحرك والريح: واوية العين أصلها روح وقعت الواو ساكنة بعد كسر فوجب قلبها ياء لتلائم الكسرة كما تقتضيه القاعدة الصرفية ومما يدل على ذلك رجوع الواو في الجمع في كلام العرب كقول زهير بن أبي سلمى:

قف بالديار التي لم يعفها القدم

بلى وغيرها الأرواح والديم

أي: الرياح وكذا قول الشاعرة العربية:

لبيت تخفق الأرواح فيه

أحب إلي من قصر منيف

تعني: الرياح.

* * *

هل تموت الروح

أو الموت خاص بالبدن ؟

يرى بعض الناس أن الروح قابلة للموت والفناء كغيرها من سائر المخلوقات ويستدل أصحاب هذا الرأي بأدلة منها قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل

عمران: 185]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص: 88]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ الآية [المؤمن: 11].

وجه استدلالهم من الآية الأولى أن الروح نفس وكل نفس ذائقة الموت.

النتيجة: الروح ذائقة الموت.

أما وجه الاستدلال عندهم من الآية الثانية فهو أن الروح شيء وكل شيء هالك إلا الله، النتيجة: الروح هالك، أما الآية الثالثة فوجه استدلالهم منها: أنها نصت على أن أهل النار ذكروا في تضرعهم إلى الله واعترافهم بذنبهم أنه أماتهم مرتين فتكون إحدى الإماتتين للبدن والأخرى للروح لأن الأبدان لا تموت إلا مرة واحدة(14).

مناقشة الأدلة:

لقد استدل هؤلاء كما ترى بثلاث آيات من القرآن واستخرجوا منها قياساً منطقيا من مقدمتين ونتيجة من الشكل الأول من أشكال القياس الأربعة وهذا الشكل نتيجته دائماً صادقة عند علماء المنطق إذا كانت المقدمات كلها صحيحة مسلم بها الخصم وخصوم هؤلاء ينازعون في المقدمة الصغرى ويقولون: لا نسلم أن الروح دائمًا لا تصدق إلا على النفس وأن النفس دائمًا لا تصدق إلا على الروح فمن الجائز أن يكون المراد بلفظ النفس في الآية الكريمة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ الذات فيكون المعنى: كل ذات ذائقة الموت لاسيما وقد ورد في القرآن إطلاق لفظ النفس على الذات في أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء:29]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور:61] الآية، المراد: ذواتكم، أي: لا تقتلوا ذواتكم ـ سلموا على ذواتكم.

وبهذا يتضح أن النفس التي بمعنى الروح لم تقع موضوعًا في المقدمة الصغرى فيختل القياس فتكذب النتيجة.

أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ فهم إنما استدلوا بها أيضًا عن طريق القياس فقالوا: الروح شيء وكل شيء هالك ينتج الروح هالك، وهذا القياس معارض من حيث إن توهم العموم في موضوع المقدمة الكبرى غير صحيح لأن المعنى: كل شيء كتب الله عليه الهلاك فإنه هالك أما الروح فإنها خلقت للبقاء فلا تدخل في عموم كل فتكون خارجة عن موضوع المقدمة الكبرى فيختل القياس إذ يمكن أن يقول الخصم: كل شيء كتب الله عليه الهلاك فهو هالك والروح خلقت للبقاء فهي باقية.

الرأي الثاني في هذه المسألة:

اعتقاد بقاء الروح بعد مفارقتها للأبدان بالموت في عالم الأرواح إما في عذاب وإما في نعيم إلى أن يرجعها الله إلى الأبدان عند البعث وهذا الرأي هو الحق الذي تشهد له نصوص الكتاب والحديث بل والإجماع ممن يعتد بقولهم فإن الآيات الكثيرة والأحاديث المستفيضة الدالة على عذاب القبر ونعيمه

تؤيد هذا الرأي وتدعمه كقوله تعالى: ﴿ النَّارُ يعْرَضُونَ عَلَيهَا غُدُوًّا وَعَشِيا وَيوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: 46].

وجه الدلالة من الآية أنها نصت على أن أرواح آل فرعون تعرض على النار غدوًّا وعشيا قبل قيام الساعة أي زمن البرزخ فلو كانت الروح تموت أو تفنى لم يكن عرض أرواح آل فرعون على النار الغداة والعشي.

ومن الأدلة أيضًا على بقائها وخلودها قوله صلى الله عليه وسلم: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة» وقوله عليه الصلاة والسلام ما معناه: لما أتلف إخوانكم في سبيل الله يعني: الشهداء ـ جعل أرواحهم في أجران طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، ولقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْياءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169].

والحق في هذه المسألة أن يقال ـ والمعنى لابن القيم ـ : إن أراد القائل بموت الأرواح خروجها من أبدانها ومفارقتها لها عند الموت فالأرواح تموت بهذا المعنى وإن أراد أنها تفنى وتنعدم فهي لا تموت بهذا المعنى، وهكذا من قال: إن الأرواح لا تموت إن كان يريد أنها لا تفارق الأبدان ولا تنفصل عنها عند الموت فهذا غير صحيح وإن أراد أنها لا تفنى فهي لا تفنى في هذا المعنى وهو الصحيح(15).

* * *

(12) شرح العقيدة الطحاوية للشيخ علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (ص444).

(13) شرح الطحاوية لعلي بن أبي العز الحنفي.

(14) شرح العقيدة الطحاوية للشيخ علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (ص444).

(15) لوامع الأنوار البهية (ج2 ص40) للشيخ محمد بن أحمد السفاريني.

خــاتـمــــة

لقد أصبح الاعتراف بوجود الباري جل شأنه حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل، والإيمان به والإقرار بربوبيته ووحدانيته أمر مقطوع به لدى كل عاقل فإن كل ذرة في هذا الكون الفسيح شاهد ناطق بوجود الله صانع الكون وموجده وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

بل في نفس الإنسان وتركيب خلايا جسمه وأجهزته الدقيقة المعقدة ما يكفي في الدلالة على وجود الله سبحانه وتعالى، ولقد كان الاعتراف بوجود الله مركوزًا في الفطرة يشعر به كل إنسان إلا من فسدت فطرته بمرض الشكوك أو العناد أو الطمع، وكما ثبت وجود الله بدليل الفطرة والنظر في مخلوقاته ومصنوعاته فإن العلوم التجريبية شاهدة أيضًا بوجوده وأزليته وكل من نظر في الأدلة الكثيرة المتنوعة العقلية منها والكونية أدرك ضرورة أن لهذا الكون خالق ومحدث وأن ذلك المحدث لا يمكن أن يكون إلا أزليا قديمًا ومن خلال ما تقدم يثبت فساد ما أورده الوجوديون من شبه اصطنعوها لتضليل الناس وتشكيكهم في خالقهم وموجدهم كشبهة قدم العالم أو إسناد خلق العالم إلى الطبيعة أو الصدفة أو غيرها.

ويتبين أيضًا ثبوت البعث وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين لقيام البراهين القطعية على ذلك في الكتاب العزيز والسنة المطهرة بأساليب مختلفة وطرق متعددة تارة بالاستدلال ببدء الخلق على الإعادة وتارة بالاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الأموات ومرة أخرى الاستدلال بالقدرة على خلق الأشياء الكبيرة العظيمة على ما هو أصغر منها وغير ذلك من الطرق الكثيرة المتنوعة التي لا تدع مجالاً للشك في قدرته سبحانه وتعالى على إعادة الحياة إلى الأجسام مرة أخرى بعد فنائها كما أنشأها أول مرة.

هذا وأسأل الله أن ينفعنا والمسلمين بهذا البحث إنه على كل شيء قدير.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

10/5/1396هـ

مؤلفه

حمود بن عبد الله بن عقلاء الشعيبي

أستاذ العقيدة في كلية الشريعة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* * *

مراجع البحث

1 ـ القرآن الكريم.
2 ـ صحيح الإمام البخاري.
3 ـ صحيح مسلم.
4 ـ سنن الترمذي.
5 ـ مسند الإمام أحمد.
6 ـ سنن أبي داود.
7 ـ تفسير ابن جرير الطبري.
8 ـ تفسير الرازي.
9 ـ الفتوحات الإلهية للجمل.
10 ـ شرح الطحاوية للشيخ علي بن علي بن أبي العز الحنفي.
11 ـ لوامع الأنوار للشيخ محمد السفاريني
12 ـ الإشارات والتنبيهات لابن سينا.
13ـ التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية.
14ـ كتاب الروح لابن القيم.
15ـ العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني.
16ـ البراهين العلمية على وجود الخالق ـ محمد فؤاد البرازي.
17ـ موافقة المعقول لصحيح المنقول لشيخ الإسلام ابن تيمية.
18ـ كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام علي بن حزم.

* * *